

غَادَةُ السَّمَانِ

لَيْلُ الْغَرَبَاءِ



- لوحة الغلاف الاول للفنان رينيه ماجريت ، رسمها عام ١٩٣٩
واسمها « تدرجات النار » .
- الخط وتنفيذ الغلاف للفنان حسين ماجد .

غَادَةُ السَّمَانِ

لَيْلُ الْفَرَبَاءِ

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة
منشورات غادة السمان
بيروت - لبنان
ص.ب ١١-١٨١٣
تلفون ٣١٤٦٥٩
فاكس ٩٦١-١-٣٠٩٤٧٠

الرسوم الداخلية بريشة الفنان
فاروق البقيلي

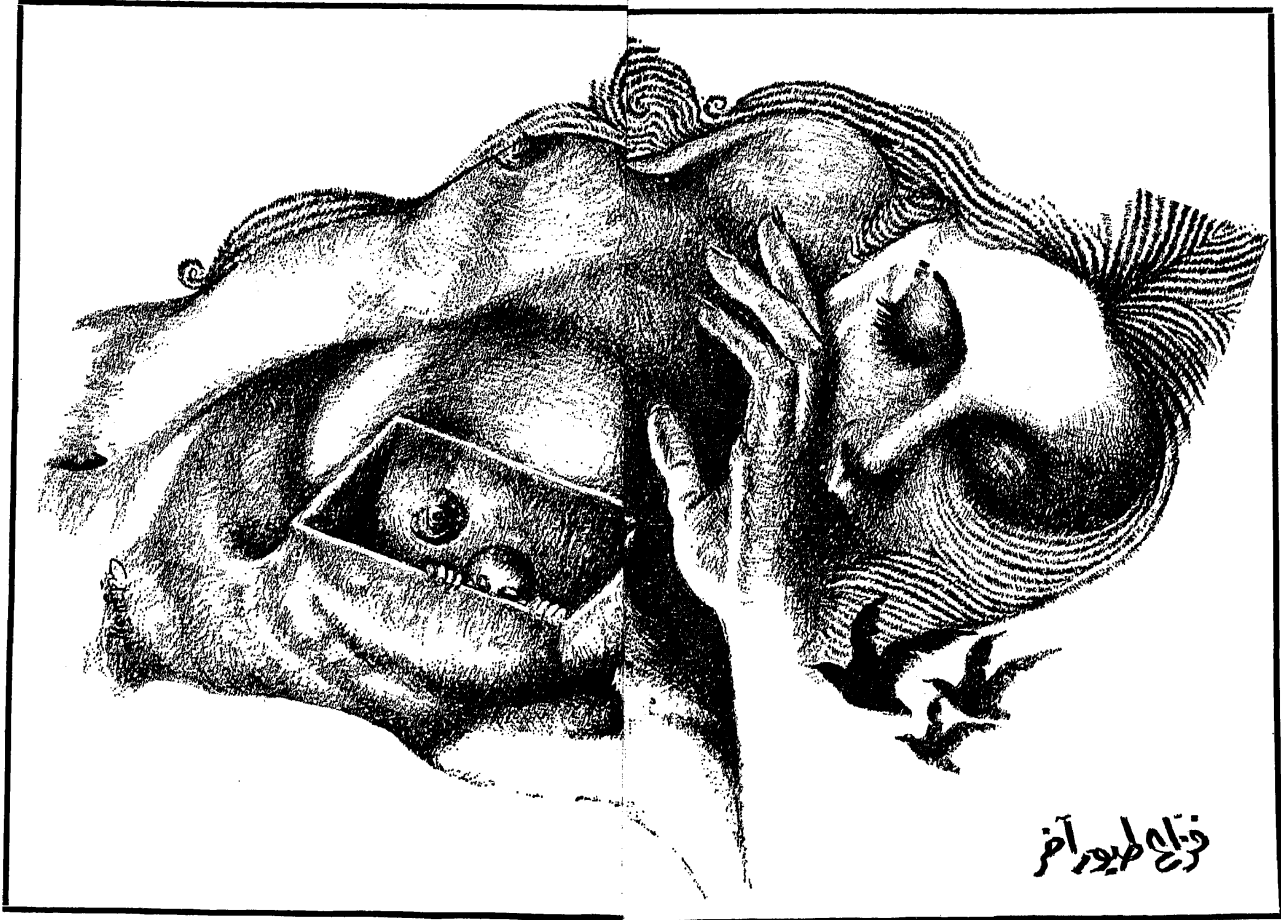
الطبعة الأولى	: حزيران (يونيو) ١٩٦٦
الطبعة الثانية	: تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣
الطبعة الثالثة	: أيلول (سبتمبر) ١٩٧٥
الطبعة الرابعة	: كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٧
الطبعة الخامسة	: نيسان (أبريل) ١٩٧٩
الطبعة السادسة	: كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨١
الطبعة السابعة	: شباط (فبراير) ١٩٨٦
الطبعة الثامنة	: كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٩
الطبعة التاسعة	: تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٥

الاجتهاد

إليك

يا من جعلتني أعي غربي
لك ، ولذكرى حكاية لم نعشها

غادة



فراق طيور آخر

تمطر تمطر
تمطر برداً رمادياً وساماً . تمطر منذ الصباح ، وعلى وتيرة
واحدة .. على وتيرة واحدة ..
تزرعني في قطار بطيء يحترق صحارى شاسعة ميتة ، وركابه
لا يعرف بعضهم بعضاً ، وكل منهم يتحدث لغة لا يعرفها
الآخر ، ولا أحد يدري إلى أين يمضي ، أو من أين أتى ..
تمطر ببلادة واستمرار ...

والقطة لم تنقطع عن نواحيها في الحديقة ... نواح خافت
ملتاع .. أحسه نصلاً حاداً لسكين تنغرس ببطء واستمرار في
بطني . لا أدري لماذا لا أجروء على التخلص منها ، كما لا أدري لماذا
قتلت أطفالها منذ أسابيع .

(في الليل سمعت مواء فظيماً .. كانت أول مرة أسمع
قطبي المدللة تعول هكذا . تبعت الصوت . وجدتها في مرسمي ،
قرب النافذة ، وعلى الوسادة خمس قطط صغيرة تتحرك ،
وتزفوق .. خمسة أطفال هكذا للقطة ، ودفعة واحدة ! ...
لا أدري لماذا التزعتها رغم أظافرها المنشبة في يدي ، وفتحت

النافذة ، ورميت بالقطط الخمس منها ، واحداً بعد الآخر ..
كانت لا تزال تنوح ، وكان في عينيها اتهام حائلد مخيف ...
نظرة إنسانية كتلك التي قد تطل من عيني لهرأة سحلوا أولادها
أمام عينيها ... على جدران الرسم كانت عشرات اللوحات
لعشرات الأطفال .. ووجوههم متشابهة كأنها وجه واحد لطفل
لم يلد بعد ، لكنني أعرف ملامحه جيداً ... حتى أجساد الرجال
في لوحاتي كان لها وجه ذلك الطفل .. حتى أجساد الأزهار ،
حتى أجساد الأشياء كان لها وجه طفلي الذي لم يلد .. وأنا
أغلق الباب على نواحها سمعت أن مئات الأطفال في لوحاتي
يكون بمرارة وشراسة) ...

تمطر تمطر

تمطر أمسية جديدة كثيفة .. ليثها تنفجر رعداً .. تتمزق
أحشاؤها برقاً ، تهذي رياحها في شقوق النوافذ وتصففر ، كي
تنزس القطة ، ويكف السأم عن السأم .. أي شيء ، أي شيء
إلا هذا الركود الميت الذي يصبح أيامي في هذه القبلا المخيفة .
وهو ، رغم الصقيع مغروس على الشرفة منذ أكثر من ساعة
بلا حراك ..

وفزاع الطيور مغروس في آخر الحديقة بلا حراك أيضاً ..
(انه صامت دوماً .. منذ زواجنا لم نتبادل الحديث إلا
نادراً .. نراه يتحدث إلى فزاعي الطيور وأشباح الحدائق) ..
يخرج لفاقة جديدة (لماذا لا يقدم لفزاع الطيور سيجارة)
في أيام زواجنا الأولى كان ذلك الصمت البارد يتعسني .. يرمي
بي في حديقة صفراء حلزونية يموت فيها حتى الصلدى .. في
أيام زواجنا الأولى كان لا يزال قادراً على اتعاسي .. طلالا بحث

له عن اعدار بينا أنا أرسم وأرسم لوحات لأطفال ، وأتمنى
لو تصرخ لوحة يوماً ، ويقفز منها طفل حي ... عشرات
الاعدار « انه قاض ، وفي كل ما يدور ظلم لي .. ولكنه أيضاً
رجل أعمال كبير .. ربما تسرب ذلك الجزء من شخصيته إلى
علاقتنا .. عواطفه تخضع لقانون العرض والطلب .. ان تجهمت
هش لي ، وان صمت أغرقني بفصاحة مفاجئة .. ان بدوت
راغبة به استخف بي ، وان أعرضت عنه اشتعل وجداً » ...
وتعلمت يومئذ كيف أحرق كلمات الحب الفائضة على
شفتي كما يحرقون البن في البرازيل كي لا تتدنى أسعاره ..
سئمت طعم الرماد ...

تمطر بين جلدي ولحمي .. تمطر داخل عظامي .. في حلقي -
فأعجز عن الاجابة على سؤاله الذي يصفع وجهي مع تيار البرد
المتدلق من الباب : هل اتصل الطبيب وبلغك النتيجة ؟

- لا .. لم ...

- من ؟ من اتصل اذن ؟

- هم . ينتظرونك .

سمعت صوتي قاسياً جارحاً .

ينتظرونك ، قلتها كأنني أطلق عليه الرصاص .. لكنه لم
يترنح ولم يسقط صريعاً ، وإنما عاد يغلق باب الشرفة خلفه ،
ويخرج إلى فزاع طيوره .. اسمعني أكرر : «هم» .. «هم»
« ينتظرونك » ...

أراهم هناك ينتظرونه ..

أراهم هناك متحفزين . يدخل إلى الغرفة مجموعة من المتناقضات
الناجحة .. عينان هرمتان وابتسامة طفولية ... الحركة المهادنة

لقاض ، والمظهر الرياضي لرجل أعمال وسم ..
أراهم هناك يتأملونه .. ثم سيقولون شيئاً كثيراً .. سيتهمونه
بشيء خطير .. سيتحدثون بشراة ، كما تأكل الغربان لحمًا من
جرح مقيد لما يمت بعد ..

ولن يجيب . أعرف انه لن يدافع عن نفسه . سيظل يواجههم
بالبرود نفسه الذي طالما احرقني ..

ثم سيتحدثونه . لديهم شاهد اثبات . سيضحك باستخفاف .
سيصرخ أحدهم في وجهه : اننا واثقون من التهمة . انك لم
تدرس قط اضبارة متهم واحد .. كنت تحمل كل شيء ،
المرافعات والأدعاء ، كل شيء .. كنت تدخل إلى المحكمة وفي
جيبك مجموعة من الأوراق المطوية . وعلى كل ورقة كتبت
كلمة : مذنب ، أو بريء .. وكانت أصابعك العمياء تختار في
عتمة جيبك ورقة ما .. ثم تفتحها ، وتقرأ ما فيها .. مذنب ..
بريء .. تبعاً للصدفة العشوائية .. هكذا بلا منطق ولا تبرير ..
انه ظلم .

وستمعن ابتساماً وصمتاً ...

ثم ، الضربة الأخيرة : وشاهد الاثبات هو زوجتك ! ...
ربما ، حينئذ فقط سيسقط اللجام عن فمك ، وربما ستصرخ
في وجوههم كما صرخت في وجهي تلك الليلة الرهيبة منذ
عام ...

... (كانت أيضاً تمطر ، ولكن بشراة .

كنت لا أزال أحبك . أعجز عن النوم إذ لم أخف وجهي
في صدرك .

كنت لا أزال أومن بأن في قاع بحار صمتك كنوزاً نادرة .

ضوء مكتبك كان يتزلق تحت بابها المغلق ..
عارية القدمين تسلت اليك . قورت أن أحاجلك بقبلة على
عنقك من الخلف اجرك بها إلى السرير .
بيطاء أحرص كنت أتحرّك ورائك . وقفتم ، وقبل أن أنحني
بقبلي ، صعقتني المشهد ..
فعلى المنضدة كانت هنالك عشرات من قصاصات الأوراق ،
وعلى كل منها لاشيء سوى كلمة « مذنب » أو كلمة « بري » .
أما المصنف الأسود الذي جنّت به معك وقلت انك سوف تدرسه
فكان على الأرض ، تحت قدميك ! ..
شبهت . وحينما التفت إلي ، ورأيت وجهك ، وتعبيره
المرعب فهمت كل شيء .. في ثانية ، بسرعة التماع البرق
أدركت كل شيء ... ظل وجهك متقلص الملامح ، يتفصّد
عرقاً .. إذن هذا ما يخفيه صمّتك ؟ .. لتقتل ، ظللت محافظاً
على منصبك كقاض ، رغم نجاحك الكبير في البوزصة ، ومن
خلف ستار .. اقتربت بوجهك مني ، تذكرت الوجوه التي
وصفها دائتي في جحيمه .. خفت .. أردت أن أهرب ...
أمسكت بيدي وسمرتني .. عبتاً تملصت . أحسست اني بطريقة
ما محكوم علي بالموت ، ولكنك لن تجرؤ على تنفيذ الحكم
بنفسك ..

— لن تجرؤ

— يا غبية

— لن تجرؤ .. هذه جريمة تخلف دماً وجثة ..

— يا غبية

— وليست باسم العدالة ..

- يا غبية
- ولا تتقاضى لارتكابها راتباً .
- يا غبية .. الأمر أشد فظاعة .. أشد فظاعة ..
- المفروض انك تمثل عدالة الالهة ..
- اني أطبقها على طريقتهم .. حاولي أن تفهمي
- هذا إلحاد . ما ذنب الالهة ؟
- اني أقلدهم ، باخلاص !
- وتسلم مصير الناس لعشوائية الصدفة ؟..
- الصدفة إله العالم ...
- أنت مجنون

- وأنت غبية .. ما تزال اللعبة تنظلي عليك ..

وأقنعت نفسي بأن اللعبة لم تعد تنظلي علي .. ان علي أن أصنع شيئاً أنقذ به مثلي ، وآلاف المتهمين الذين تقرر الصدفة مصيرهم ... لكنني حينما أمر بفزع الطيور في الحديقة ، كنت أدرك في ألم بالغ انني ربما أفعل ذلك كله لأن زوجي لا يحدثني ... ولأن حياتي صارت صحراء خاوية من الصمت الميت ، فإن جثة انديها ، خير من فرحة لن تجيء !..

الهاتف . ربما كان الطيب ، ربما يحمل إلي بشرى ما .. أظل جامدة .. لن أتحرك ، أخشى أن يكونوا «هم» الذين «ينتظرونه» .. الخادمة «تفاحة» تدفع بطنها المنتفخ أمامها متدحرجة في الردهة . ترفع الساعة . تتمم . تتقدم نحوي وهي تحمل الهاتف بإحدى يديها . كم هي بشعة ، بشعة ، بهذا الوجه الميت الذي يعبر عن لا شيء ، خطوات ثور حرارة .. وهذا البطن الذي ظللت أرقبه يكبر يوماً بعد يوم وينتفخ ، كيف

لا تتمزق عضلاته ويسقط إلى الأرض ويتحطم ما بداخله ..
كيف استطاع أي رجل في العالم أن يضاجع بهيميتها ؟ كم هم
مقرفون .. أمقتها ، يمزقني أن أتصور أن داخل الثياب الرثة
المحيطة بترهلها طفل صغير !.. وهي تملكه ، وأنا لا أستطيع
بكل ما أملكه ، وبكل الرجال الذين يتابعونني بجوع ، لا أستطيع
أن أملك شيئاً كهذا !..

دقائق ، وأترك الساعة تسقط من يدي ...
إذن لن يكون لي طفل أبداً !... لن لن لن ..
هكذا بلغني الطبيب الآن ... حكماً قاطعاً غير قابل التمييز أو
التقص ..

لماذا ؟ لا يدري ... لا أحد يدري ...
لماذا ؟ ...

فوق غيمة مشدودة إلى أفق معتم أرى مئات الأوراق التي
سبق ورأيتها على منضدة زوجي ... مذنب .. بريء .. عاقر ..
تنجب .. مذنب .. بريء .. عاقر .. تنجب .. ثم أصابع
شيطانية عابثة ، تلتقط ورقة ما ... ثم يقول الطبيب : آسف ..
عاقر ... وعلى الوسادة كانت القطة تضعهم دفعة واحدة ،
خمسة أطفال ...

عاقر .. ربما كان لفزاع الطيور أطفال مثله ولكنهم يكرهون
الصمت ، لذا يرحلون مع أغاني طيور الحقول ..
تمطر تمطر ...

تمطر أنيناً خافتاً يتعالى شيئاً فشيئاً ... يتحد مع نواح القطة
في الحديقة ... ونحن ثلاثة من فزاعي الطيور ، كل منهم
مغروس بعيداً عن الآخر بلا حوار ولا لقاء .. من يثن ؟ ...

يدخل من الشرفة . لا يبدو عليه انه يسمع أي صوت غير عادي .. يقول انه ذاهب ولن يتأخر .
كعادته لا يسمع أي أنين . يمضي ، وأرى أوراقاً ممزقة تتطاير تحت قدميه « مذنب » « بريء » « مذنب » « بريء » ...
وحيدة في الدار ...

الأنين يتعالى .. من أين ؟... اني واهمة ... لا أحد في الفيلا المنعزلة سواي ، والخادمة ... وبيروت لم تشتعل الليلة في ركن النافذة ضوءاً بعد الآخر ... حوت الضباب ابتلعها .. ربما كان فزاع الطيور يتحجب ... تراه يحزن ؟ .. يغضب ؟ ... يكره ، يثور ؟ .. تراه يتحدث إلى زوجي « نجم » ؟ ... يتسلل كل ليلة إلى المكتبة بساقيه القصصيتين فيجالسه ويمزقان الاوراق معاً ويكتبان « مذنب » « بريء » ... لماذا لا يتزوج الزجال الصامتون من فزاعي الطيور ؟ ... لماذا يحكم علي بلا مبرر أن أسقط في الصمت ، ولن يملأ المكان طفل يصرخ محتجاً ، يمزق القناع عن وجه نجم ؟ ..
تمطر تمطر ...

والانين يستحيل صرخات متقطعة .. ربما كان أطفالني في اللوحات جياًعاً .. حتى اليوم لم أجد الوسيلة التي أطعمهم بها .. ربما كانوا بحاجة إلى التزهة ، وإلى اللعب ... أطفالني سجناء اللوحات ، لماذا لا تطلق الآلهة سراحهم ليتدفقوا إلى العالم من جوفي ، ومن بطني ..
تمطر صراخاً ...

من يصرخ هكذا ؟ ... ربما كان الجسد في اللوحة التي لم أرسم وجهها بعد يحتج ...

اركض إلى مرسمي . اضيء النور . لا شيء ، لا أحد
سوى أطفالي العشرين مدقوقين إلى الجدران ... واللوحة التي لما
تنته بعد تنتظر وجهاً ... النافذة مفتوحة .. والوسادة التي كانت
القطعة تضع أطفالها ... لا أجرؤ على الاقتراب من النافذة ...
نخيل لي ، ان خلفها في العتمة خمسة وجوه صغيرة لقطط
أنيابها مديبة ، ولو أطلت براسي منها لغرست في وجهي اظافرها
ومزقته ..
أهرب ..

لا تزال تمطر صراخاً ... الصوت ينبعث من هناك .. صوت
يناديني أيضاً .. لست واهمة ... أكره ليلة الأحد حينما يذهب
الخدم جميعاً .. « تفاحة » وحدها لم اعطها اجازة منذ رأيت
بطنها يكبر .. أكرهها ، وأحقد على صبرها في تحمل تغذيبي .
أريد أن تظل هنا ، لا أدري لماذا أحب أن أرهقها ، أراها
تلهث تعباً ، تمسح عرقها الكريه الرائحة ، تتحرك كحيوان
أبله ، وعبثاً أقنع نفسي ان في بطنها ماعزاً أو جروراً أو
فتراناً ...

المطبخ . ليست في المطبخ ..
غرفتها الحفيرة . ممددة على ظهرها فوق الفراش . يداها
فوق بطنها الكبير . صامتة ، وعضلات وجهها لا تزال متقلصة
بتأثير ألم لم أره قط يرتسم في ملاحظها من قبل . وجهها موثر
ومهيّب

إلى جانبها السنارتان اللتان طالما شاهدتها تعمل بهما ، وتنسج
ثوباً بعد الآخر ... وكنت أرى أيدي غضة لأطفال صغار تخرج
من ثقبها التي لما تكتمل بعد ، وتنمو يوماً بعد يوم مع الحياة

المستمرة ... أحس برغبة مجنونة في أن أغرس السنائر في بطنها ،
أغرسها حتى تمزق أحشاءها وما فيها ... لماذا تصرخ ؟ السنائر
ما زالت في موضعها . تفتح عينيها ، لثانية ، يلتصع فيهما انتصار
انثوي مخيف ... أنها تتحداني .. ثم تفرقان في عتمة ألم يرتسم
في وجهها ممتزجاً بلذة عجيبة ... ألم راهبة تفتصب ، ويعذبها
استمتاعها بذلك ! ...

تتمت متوسلة .. تريد طيباً ...

لماذا ؟ لماذا يحضر الطبيب من أجلها لا من أجلني ... والطفل
لها وليس لي ؟ ...

شيء أسود يفور في أعماقي ، يمتزج بانتحابها ... فقاعات
سود تنعقد ، تملو ، تتدفق من حلقي ، من عيني ، من
مسامي . فقاعات سود من حامض كاو تفرق كل شيء ... كل
شيء بهتريء يحترق ، أريد أن بهتريء كل شيء ، إن يحترق ،
أريد أن أحتج ، أن أتمرد ، أن أغرق كل ما حولي بدمار
حقيقي عابث ... لماذا .. لماذا .. ؟ من .. من .. ؟ كيف .. ؟
متى .. ؟ من .. من أصدر هذا الحكم علي ؟ لماذا أنا لن أتمدد
قط على السرير ثم أنهض وعلى ذراعي طفل ؟ .. لماذا لن أحس
داخل بطني بديبب أقدام صغيرة ، وجسد طفل يتقلب داخلي
فأهب من نومي أنحسه ريثما يملأ صراخه الدار ...

اظل أرقبها بوجه ميت .. أرقب الفقاعات السود تتدفق من
عيني وتفرقها ... لماذا ، من ، من ، من يعبث بالاوراق ثم
يبعثرها في الريح ، وتحملها عشوائية الصدف « عاقر » « غير
عاقر » ؟ ما ذنب « نجم » ان كان قد فهم سريعاً ؟ .. ما ذنبه ان
كان مؤمناً بالحاده ، مخلصاً لفجيئته ؟

يا انا ..

تمطر تمطر خلف النافذة ... تراها تمطر أيضاً في بيروت ؟
لماذا لا تمطر في كل مكان في وقت واحد ؟ ...

من يوزع المطر والاطفال ؟ .. من جعل من الصدقة عدالة ؟
تمطر تمطر

والخادمة تصرخ متوسلة ... منذ أسبوع وهي تتوسل من
أجل اجازة .. اذن كانت تدري ...

أظلم متحجرة ، أتفجر حقداً أسود ... بالفقاعات السود
سوف أطمرها ... أهيلها عليها أتربة قبر تخنق صرخات الطفل
داخلها ... ألمها يثير شيئاً يشبه الغيرة ، شيئاً أشد مرارة وأكثر
وخزاً وبؤساً .. نصمت .

تروح في شبه اغماءة . أحس بحاجة إلى أن أرسم
طفلاً .. فلتضع طفلها وحدها . لا دخل لي في الأمر ...
سأذهب أنا أيضاً إلى مرسمي وأضع طفلاً جديداً ... سأتم
اللوحة . أمر بالهاتف وأتجنبه . من جديد يتعالى صراخها .
يستحيل عويلاً ...

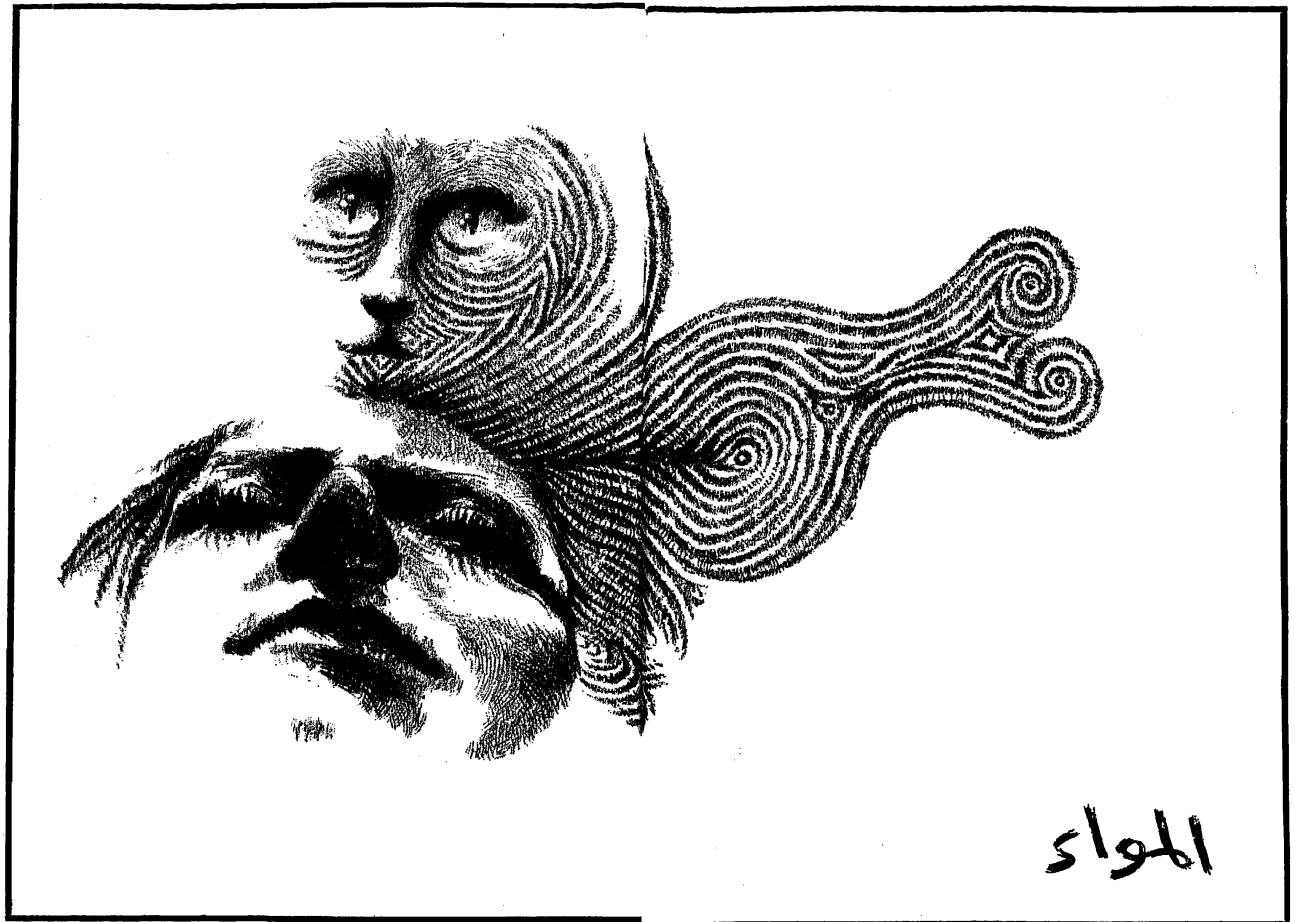
فلتصرخ ... لن يسمعها أحد في دارنا النائبة في « البرزة » ..
فلتمت ، وان استطاعت الولادة كما فعلت القطة ، لن أجرؤ
على أن أرمي به من النافذة .. لن أجرؤ ، لأنني منذ تلك الليلة
لم أعد أرى في وجوه أطفالي في اللوحات نظرات المحبة والالفة
التي كانوا يغمروني بها . صاروا يتجهمون في وجهي ولا يمشون
في الليل ... صاروا يكرهونني ويخافونني ... سألد الآن طفلاً
جديداً ، أسكبه في لوحتي وأتخلص منهم جميعاً ...
صراخها يثير في أعماقي عويلاً مشابهاً ... عويلاً من الفقاعات

السود ، تياراً جياشاً من صخب ارعن متوتر كاو ... اني بحاجة
لأن أرسم ... يدي تركض أمامي ... تجرني إلى المرسوم ... أنا
أسيرة يدي ... التيار الاسود يحرك يدي .. صراخها يشيره ..
عاجزة عن السيطرة على أية عضلة في جسدي . يدي ترسم
وحدها مجنونة هوجاء ، في الخارج تمطر بوحشية ، صراخها
انتحاب ملاح مطروح على الشط تأكله « السلاطين » .. يدي
ترسم وحدها ، مجنونة هوجاء ...
تمطر بوحشية ... الرعد حقل الغام في الاعلى تفجره أقدام
شيطانية .. البرق .. خائفة .. تصرخ .. خائفة .. خائفة ...
شيء ما يقبع فوق عنقي من الخلف ... أظافر ققط شرسة
أحسها تمزق لحمي .. خائفة ... في الحقل ملايين من فزاعي
الطيور يركضون وقد حملوا المشاعل في موكب احتفالي مخيف ..
والرعد حقل الغام لا حصر لها ... والبرق يتناوب الالتهاب على
اطفال الجدار ... ارسم .. أريد أن أرسم طفلاً .. لا أدري
ماذا أرسم ... وفزاعي الطيور يتجهون نحو النافذة ... والتيار
الكهربائي انقطع .. وأطفال لوحاتي يكبرون بسرعة والبرق
يحصد الوجوه ذات العيون المفقوءة... تتجمد وجوههم وتسقط أسنانهم
على الأرض ويبيض شعرهم وينوحون ثم يستحيلون فزاعي طيور
جدداً يقفزون من اللوحات ومن النافذة المفتوحة وينضمون إلى
الجمع الهازج تحت النافذة ... الحركة المرعبة في صراخهم الناثحة
الهازجة ، والرياح تضرب النافذة ، أريد أن أهرب لا أستطيع .
يدي تقيدني إلى اللوحة فأرسم وأرسم وأعجز عن الهرب .. التيار
الكهربائي عاد يضيء . عاجزة عن الهرب . ثم فجأة ،
صرخة واحدة تدوي عند باب الغرفة .

المرأة الأخرى ، وخيط الدماء خلفها .
ويهدأ صراخ الموكب في الأسفل . أحس ان ملايين من
فزاعي الطيور يتلصصون الآن من النوافذ بأعينهم المفقوعة صامتين
في شيء من الخشوع الخجل ... المرأة الأخرى تتحامل على
نفسها ، تدخل وتسقط فوق المقعد ، والوسادة نفسها التي
وضعت عليها القطة الأخرى خمسة أطفال ... تراها هي أيضاً
سوف تنجب خمسة أطفال ...
أراها كبيرة كبيرة ، عملاقة ضخمة ، في عينيها تحد أمر ،
قوة خلق مذهلة لا تفسر ، وألم جميل مشع مرير ...
من جديد أعني الأشياء ...
هدوء مفجع قاس يغمرني ...
تريد طبيباً ، وإلا ماتت ...
وأنا الحاكم المطلق ...
عبثاً أتذكر مثلي ، عبثاً أوقظ في نفسي عالمي الحلو القديم ،
عبثاً أبحث عن وجهي الذي كان ...
في اللوحة التي رسمت دون أن أعني ، أجد وجهاً غريباً ...
مزيجاً من وجهي ووجه نجم ! ... مزيجاً من القسوة والفجعة
حتى اللامبالاة ... ثم ينحني لي ان اللوحة مرآة ... ابتسم فيبتسم
الوجه في اللوحة ... أحرك شفتي فيحرك الوجه شفتيه ...
تعود إلى الانين الذي يستحيل صراخاً ... بماذا سأحكم ؟ ..
صقيع القسوة المفجعة يغمرني ... يتحجر داخلي ... الأصوات
كلها تموت عند عتبة عالمي بهدوء حقيقي ، أخرج إلى غرفة
مكتبة زوجي . أجلس حيث كان يجلس . أخرج ورقة بيضاء .
أقطعها بعناية إلى قسمين . أكتب على الأولى « سأحضر الطبيب »

وأكتب على الثانية « لن أحضر الطيب » . أطوي كل منهما .
أضعهما في جيبى وأخطهما ...
ثم أسحب واحدة منها .
أفتحها . وأقرأ « لن أحضر الطيب » ... حكم قاطع لا يرد.
لا أسمع أي صوت وأنا أدخل إلى غرفتي ... بهدوء وعناية
أرتدي ثيابي . أحمل مفاتيح سيارتي . ولا أنسى أن أتترك
لزوجي ورقة كتبت فيها « أنا عند نورا ونيللي ... سوف نلعب
البريدج مع بقية الشلة » .

تُرجمت هذه القصة إلى الإيطالية والفرنسية والألمانية والانكليزية



1961

عاد المواء المتقطع . مواء مستمر مخنوق شاحب من هناك .
اقترب من النافذة وأطل على الهوة المظلمة : بثر من الجدران
المكسوة بالهباب ، تقطعها بعض النوافذ المضيئة ، وأنابيب المياه
والغاز السود ، وتبدو الاشياء بمجموعها كأحشاء بطن مفتوح .
الجدار المقابل لنافذي مقصوص من أعلاه ، يطل خلفه
شيخ مرعب ، اكتشفت في النهار انه شجرة ضخمة ، ودهشت
كيف يمكن لشجرة أن تعيش في وسط هذا الحي في لندن حيث
يوجي كل ما حولي بالعمى !

عاد المواء مخنوقاً شاحباً ، وعاد الاختناق الدامي إلى حلقي .
أحسست شيئاً ما في رقبتي يموء ، لاهناً متملماً جريماً ، مرافقاً
لذلك الصوت الكثيب . ابتلع لعابي وأحاول أن أبتلع حنجرتي
أيضاً .

التفت اليك مستنجدة . كنت وحدي في الغرفة .. منذ عشرة
أيام وأنا التفت اليك ولا أجذك . لعلك الآن هناك ، بين
جدران مرسمك العارية ، تستلقي تحت صدر العتمة في شرفتك
العالية ، وفي الركن لوحة ما لم تم بعد . ولا فرق بين أن تم

أو لا تم ، لأنك ستحطمها حيناً تنتهي ، ككل لوحة رسمتها ،
ستظل جدران مرسمك عارية وتظل شرفتك تطل من عليّ على
المدينة كعيني نسر غامض !
ما زال المواء يخنق متقطعاً خافتاً لكنه مستمر ، فيه تحفز
حيواني دافئ . إنه يشبه أنين لذة امرأة مكتومة الفم ، تغتصب
عنوة .

أطل على الهوة . أعود لأتأمل النافذة العليا المواجهة لغرفتي ،
نورها يسقط على الستائر الحمر المتباعدة قليلاً في المنتصف ،
حيث يتألق شق طولاني من النور والستائر ترتجف بهدوء مع
رياح لا أعرف من أين تهب وارتجافها البطيء يتواتر مع المواء
الخافت المتقطع الذي لم يهدأ منذ عشرة أيام . يداخطني - ككل
ليلة - ذلك الخوف المعتوه .

على بئر الجدران المكسوة بالهباب تتزلق نظراتي . النافذة
الملاصقة لنافذة غرفتي ما زالت مطفاة . إذن لم يعودا بعد ،
ولم يسقط ظل عناقهما على الجدار والانابيب المعراة للشمس
والرياح والظلمة كأحشاء بطن مفتوح . وأنا التي ظلت أتسكع
في الشوارع وحيدة ، كي أعود ، بعد أن ينهكهما الحب ،
فيناما ، لعلهما العاشقان الوحيدان في هذه القارة .
(أين أنت يا حازم الآن ؟ لعلك في بارك المفضل في شارع
فينيقيا ، تشرب ويافا تحترق في كأسك ، أو في فراش امرأة
ما ، يذيتها حنان يديك بينما عيناك تفيضان ملاً ولا مبالاة ،
ووجوماً أقرب إلى غربة النسور المترفعة ، منه إلى الحزن . ربما
تناديها باسمي لأنك لم تسألها عن اسمها بعد ، وقد
لا تسألها) .

بدأ المواء في الأعلى يشتد ، يتلاحق كأنفاس سجين هائج ،
والنافذة قد انطفأت والستائر الحمر اسودت كلون دم متخثر ،
لكنها ترتعش في بصيص من الضوء الخافت . شبح يتحرك
خلف النافذة . إذن فقد أطفأت النور وعادت لتلتصق بالستائر
وترقبني . الستائر تخفق كقلب مجرم يتأهب صاحبه ليغرس سكينه
في جسد يحبه ، تماوج بتلاحق بطيء متوتر ، والمواء بدأ
يتسارع ويعلو .

هذه الفتاة الغريبة الملتصقة بالستائر والليل ماذا تريد مني ؟
يوم وصولي التقيت بها للمرة الأولى على الدرج ولم أكن
أدري أنها تستأجر إحدى غرف هذا الحجر الكبير .. لفتت
نظري بمظهرها الغريب : قامة طويلة نسبياً ، بنظرون يضيق على
ساقين نحيلتين ، وردف لا استدارة فيه كأرداف الرجال ، وصدر
أملس ووجه جميل التقاطيع غريبها ، وشعر أشقر قصير يغطي
عنقها من الخلف ويكاد يمس ياقة قميصها ، ثم وجدتي أناملها
بدهشة وهي تكاد تأكلني بنظراتها ، وأصابعها تتشنج وتضغط
شيئاً فشيئاً على قطة سيامية سوداء تحملها ، ونظراتها تخمش
جلدي البني ، وأصابعها الدقيقة تتشنج بوحشية على القطة السيامية
التي بدأت تموء ، ونظراتها تسقط في فتحة عنق ثوبي ، وأظافرها
تغرس في جسد القطة التي يستحيل مواؤها شهقات محموعة هاربة
من شق في جدار جحيم . أحسست برغبة في أن أبصق .

إذن فهي ترقبني كمعادتها ، ترهف أذنيها لصوت اغلاق
بابي حينما أخرج كي تففز بسرعة على الدرج وتمر من بجانبني
كأن لقاءنا تم صدفة فتفوح منها رائحة عرق بارد كريحه . أية
موجة رمت بي في هذا العالم الرهيب ؟ والمواء ، وأنت ،

(ترى أين أنت الآن يا حازم ؟) وعشرات العيون مستديرة
لا أهداب لها ولا جنس لها كعدسات آلات التصوير ترقبني من
خلف ستائر متوترة الارتجاف ، تفيض بالسأم والملل والعقم ...
المواء يستحيل صراخاً متلاحقاً مشبوحاً وستائر النافذة العليا
تضطرب وتحقق ، وريح مجنونة تعبت بها . أنا مغمورة في برميل
مملوء بالافاعي والقارب الباردة (أين يدك يا حازم ؟) امرع
إلى نور غرقي فأطفئه . استر هلمي بالظلام . أنا سلحفاة تأوي
إلى صندوقها . لعلها الآن تهبط الدرج إلى بابي . صورتي
مصلوبة في أحداقها الزرق : كس نفود مدفون في حقيبة
سفر ، جرد آخر في الجحر الاسود الكبير حيث لا يجعنا
سوى درج خشبي واحد لولبي كأدراج القلاع القديمة التي
تسكنها الأشباح .

اسمع الدرجات الخشبية تئن لوقع أقدام عليها . صوتها
صرير أغطية توابيت تفتح وتغلق . الساعة على الجدار أمامي
تسعل . حشرة تلسغي على رقبي . سائل بارد ينحدر إلى شفتي ،
(أين صدرك يا حازم ؟ خبني ! خبني !)
أنا وحيدة في جزيرة رعب : آلاف من الاجساد الرخوة
تتسلق احشاء البئر وتقرب من نافذتي وتموء ، درجات الدرج
تئن ...

المواء ينبعث من قاع اللهاث المتعب ، يا أنا ، قرع على
الباب . اعض على حديد قفص ما ، قرع على الباب ،
(هل أفتح الباب يا حازم ؟ وجهك مدفون في عنق طري أبيض
وابتسامتك الساخرة تثبت القبلات) . اقترب من الباب ، أنسيء
النور أهتف : « مين » ، ثم أسأل بالانكليزية : من ؟

صوت ناعم : هذه أنا ... دزدرا .. هل كنت نائمة ؟
بارتياح حقيقي استنشق ما تبقى من الهواء في الحجره . إذن
فهي دزدرا . الجارة الصديقة ، وليست فتاة النافذة العليا .
افتح الباب . بصمت المواء ، تهدأ الستائر في الأعلى ، تدخل
دزدرا . عادت بهالة السواد حول عينيها .
تأملني : ما هذا الاصفرار في وجهك ؟ هل أنت مريضة ؟
- لا ... متعبة قليلاً ...

- هذا طبيعي ، حينما تسجني نفسك في غرفتك ... لم
يخبرني أخوك قبل أن يرحل مع « تانيا » انك مجنونة ، تعشقين
الانفراد . قال لي انك لعوب ، وانك ستلتهمين شباب لندن
في وجبة واحدة ؟

إذن فتانيا اسم واحدة من اللواتي أتعر بأثارهن في هذه
الغرفة العجيبة . غرفة طالب شرقي في سلة شقراوات . الثياب
الداخلية المنسية تحت المكتبة ، تراها لها ؟ الفراش القذر الذي
قضيت يوماً كاملاً في غسله ، هل يحمل آثار حذائها ؟
وأخي كان يتوضأ إذا لمحي في ثياب النوم !

دزدرا ما زالت تتحدث بسرعة ، وتتحرك بسرعة . تتحدث
كما يركض الناس في هذا الحجم حينما يقطعون الشارع ، حينما يحملون
صينيات الطعام ، حينما يرقصون ، كأنهم شريط سينمائي يعرض
على شاشة أمامي بسرعة غير اعتيادية ...

تنهرني وتصرخ بي : ها ... أين أنت ؟ ماذا دهالك ؟
- لا شيء يا دزدرا ... كنت أستمع إلى الكونشرتو الأولى
لثشايكوفسكي . انها ترمي بي بين موجات النهر الصغير الطيب
الذي اعتدت عليه . أنواء هذا المحيط الأهوج هنا تمزقني .

تنفجر ضاحكة : أيتها الشرقية المدللة ... لو اضعت وقتي
في عالم أحلام تشايكوفسكي لمت جوعاً !
لو كان الرجال يتركون بصاتهم على الوجوه لكان وجه
دزدرا مغطى بالجدري ، وحلقنا سواد تحت عينيها . ارتاح اليها
على أية حال ، من خلال وجهها المتعب كسحابة خائفة أطل على
هذا العالم العجيب بشيء من المشاركة . لماذا جئت إلى هنا ؟
(ليلة رحيلي شددتني إلى صدرك .. وكنت استنشكك بجوع
قديسة إلى الرجل ، أنخبط بنشوة في شباكك . أود أن لا أنحور
منها أبداً . همست : سوف أفقدك ! وكان لصوتك راحة
أمسيات مبلة بالمطر . ووددت لو أبكي طويلاً لاستعيد طفولتي
وأمني ، لكنني ظلت جامدة كما أنا دائماً حيناً أتمزق . هربت
إلى الشرفة وكلماتك تصفعي : « انك لا تعرفين ماذا تريدين ..
لا تعرفين ما تريدين » .

وقلت لك اني على الاقل « أعرف ما لا أريد » ، وضحكت :
لماذا لا تخرجين قليلاً من صدفتك ، وتبحرين في المحيط حولك ؟
ستكونين أكثر قدرة على الامتزاج بما حولك ، والتعامل مع
عالم الآخرين ويومئذ تقفين أمامي لأرسمك ، ما زلت عاجزاً
عن رسمك ...

— لماذا ترسمني ؟ لتنتهي من اللوحة ثم تدمرها ، كي
لا يبقى من قصتنا سوى فرشاة محطمة ، فوق أغشية فراش
ملطخة بألوانك ؟ على أية حال سوف ارحل . (

القطعة في أعماقي تنمو . دزدرا تهزني : أين أنت ؟

— هذا المواء يا دزدرا يثير جنوني !

قلت لها ذلك وكنت أتمنى أن تعلق على كلامي وتوضح شيئاً
من أمر فتاة النافذة العليا الغربية وقطتها السيامية .
أجابت : اني استأنس بصوتها ... انه على أية حال أكثر
عذوبة من صوت سقوط القنابل وصفارات الانذار !
- لا ريب في انك كنت صغيرة جداً يومئذ ..
- كنت كبيرة بما فيه الكفاية ، لافهم اننا كنا نجوع ليلة
لا يشاركننا فراشنا الحقيق شخص ثالث ..
- وأبوك ؟
- كان عليها أن تطعمه أيضاً ، وييدها ، فقد عاد الينا من
الحرب مشلولاً .

هذا العالم المثقل بتراث من الاحزان ، والمشاكل . ماذا
سوى المواء يهربون اليه يذبيون في إلحاحه بوئس غربتهم . أمّا
نحن هناك في مدننا الهادئة ، ما الذي يشوهنا ، يطلقنا في دروب
الليل بلا منارات ولا مرافئ ؟
(وكان وجهك متعباً ، ويداك تزيحان صحناً فاخراً من
الحلوى وضعه « الجرسون » للتو .

قلت لي : الريحيم ... أمرني طيببي بمراعاة ريحيم خاص ..
ثم ضحكت بمراة : في القارب المعتم منذ سبعة عشر عاماً
كنت أرعد برداً ويافا عند الأفق تحترق ، وكنت ارتعد جوعاً
ولما ابتدأت أبكي لطمني أبي بيد واحدة والأخرى تنزف سائلاً
بارداً على كفتي . وتمنيت أن أخفيك في صدري حناناً ، لكنني
وجدتني أقول : يخيل إلي انك ستظل تمزق كل ما ترسمه حتى
تعود إلى هناك وترسم لوحتك الأولى التي تبقى !)
دزدرا تهتف : لا وقت للحزن يا عزيزتي . سيصل شارلز

بعد نصف ساعة وعلي أن أستعد . لماذا لا تأتي معنا إلى مقهى «ماكابر» ؟ إنه مكان طريف يجب ألا تفوتك مشاهدته في لندن .

– ومن هو شارلز هذا ؟ ظننتك تخرجين من داني ، ولم ينفض على فراقكما يوم واحد . قد يتم الصلح بينكما ، فلماذا الآخر ؟

– شارلز زميلي في العمل وأنا معجبة به منذ زمن بعيد ، وقد دعوته اليوم إلى السهرة .

– أنت دعوته إلى السهرة ؟

– أجل ، وماذا في ذلك ؟

– هل تحبينه ؟ وهل يحبك ؟

– يحبني ؟ أنتن الشرقيات تتمسكن كثيراً بهذه المفاهيم التي تجاوزها عصرنا . الحب ؟ كيف ؟ ليس في غرفتي شرفة كشرقة جوليت أقف عليها في الليل . إنني أعمل ثماني ساعات وأتحمل أحياناً قبلات رئيسي ورائحة اسنانه الاصطناعية كي أحصل على ١٠ باوند في الاسبوع . أدفع ٦ باوند منها اجرة لغرفتي التي تطل نافذتها على هذا المنور الاسود . وإذا فرضنا انني استطعت الحصول على غرفة ذات شرفة ودفعت ١٥ باوند إيجاراً لها ، لما استطاع شارلز الوقوف تحت الشرفة والعزف على جيتاره ، لأن السيارات المجنونة سوف تكنسه ، وإذا وقف على الرصيف فسوف تطحنه اقدام المارة الراكضين خلف آخر «اوتوبيس» في الليل ، لأنه إذا فاتهم سيكون عليهم أن يقطعوا المسافة ركضاً فيما لا يقل عن ساعات ثلاث ، أو يدفعوا اجرة تاكسي ويجوعوا في اليومين التاليين ...

تحدثت بسرعة وعيناها تلتصقان بجذبل فأر اعتاد قذارة جحره

وتتابع :

— أنتن الشرقيات لا تعرفن معنى الحياة الحقيقية : الجوع والرغبة والشهوة والملل والعقم ... كل ما يريده الرجل من امرأته هو أن تطبخ جيداً وتستحم جيداً .. انها نعمة على أية حال ترتعن فيها ...

عاد المواء طويلاً متقطعاً حزيناً ، كأنه ينبعث من بناء آخر ناء في الطرف الآخر من العالم ، (ترى أين أنت الآن يا حازم ؟ أكثر من أية لحظة مضت اعرف معنى ان أخفي في صدرك ومع ذلك ما الفرق بين ان ارحل أو لا أرحل ، مادمتا في رحيل دائم أحدنا عن الآخر؟ والحبل الذي يشدنا لا يقطع ليرمينا ، ولا نريد أن يقصر ، فيوحد بين كيانينا) .

ذدرا تخرج وهي تقول برقة : سأقرع بابك قبل أن أذهب وأرجو أن ترافقينا إلى « ماكابر » .

مازلت حائرة . هل أرافقهما أم لا ؟ لا أدري ماذا اريد (وأنت أيضاً يا حازم ، هل تعرف ماذا تريد ؟ لم تجب يومئذ . وسمعت في صمتك صوت تكسر أشياء تتحطم . انك ستمت كل شيء . لم تعد تبغي سوى أفيون نخدر به أيامك ، أو ... أو انك أقنعت نفسك بأنك ستمت لما اكتشفت ان الخيبة في آخر كل طريق ، وتساأني : وماذا بعد ؟ .. وتركض كفرس أصيلة في السباق ، تقدمت كل من سواها لكنها ترددت في سأم عند كل منعطف : وماذا بعد ؟ وماذا بعد ؟ هناك خطأ ما في التخطيط لميدان السباق بأكمله) .

المواء لا يهدأ . لعلها عادت إلى نافذتها لترقبني . الساعة تكاد تشير إلى العاشرة والسماء لما تظلم بعد . هذا الليل المشوه كم اكرهه . هذا الليل المجهض ، أين الليل الحقيقي في شواطئ بيروت .. وأنت .. (والسيارة تشق صدر العتمة حتى وصلنا إلى الميناء وأشباح السفن في الليل تلمع بأضوائها المتناثرة وتبدو البعيدة منها خيوطاً من نور .

قلت لي : هل رأيت الميناء في الليل ؟ ولم أجبك . لم أقل لك انني رأيت كل شيء قبل أن التقي بك . لكن كل شيء يبدو الآن جديداً ، كأن عالمك ما كان قط لسواك ، كأن الثلج الذي اندفه في دربك جديد ناصع لم تطأه قدم سواك من قبل ، ولن تبقى فيه سوى آثارك أنت من بعد . ومع ذلك صمت . كنت أعرف كم يمكن أن يضحكك مثل هذا الكلام ، فتهمني من جديد بالانتماء إلى قرن مضى . وأنت ، إلى أي قرن تنتمي ؟ وحنائك الحارف الذي يشع من ومضات صغيرة ، من أسلوبك في رعائتي ، من اهتمامك ودفئك ؟) . ضحكات على الدرج ... المواء الطويل صار وحشي العنف . لقد عادا .

لقد عادا إلى غرفتهما المجاورة ... الرعب نفسه ، الخوف نفسه . والمواء بدأ يتعالى من أعماقي حاراً مشبوباً ، أغلق فمي كي لا أسمع ، لكنه يعلو ويعلو ويتدفق من مسامي ، من رقبتني ، من عيني شبه المغمضتين .

يغلقان باب غرفتهما . ضحكاتهما تستحيل إلى غمغات .. التصق بالجدار الخشبي الذي يفصل بين غرفتنا كما أفعل كل ليلة منذ ليل عشر . أخشى أن يسمعا ضربات قلبي كما أسمع

صوت اصطكاك عظامهما . حذاؤها يسقط على الأرض ثقيلًا .
المواء يتلاحق بسرعة شرهاً مخنوقاً . اسمعها يتنفسان كضحك
الحديد المحمى حيناً يغمس في الماء البارد . المواء في داخلي
يستحيل ندباً مريراً . صرخة طويلة ، ويصمت المواء ...
العرق البارد يتصبب عن الجدار الخشبي . أنا قنقد وقفت
أشواكه . عليّ أن أنتمي إلى هذا العالم ما دمت عاجزة عن العودة
إلى القرن التاسع عشر . « ليلي » سئمت من مضاجعة اشعار
« قيس » طيلة قرون ...

في الطريق قالت لي دزدرا وهي تلتصق بشارلز .: انتقي
الليلة شاباً أشقر من شبان لندن حاولي أن تقضي معه وقتاً طيباً !
(وقتاً طيباً ؟ ولكنني عاجزة عن التمتع بصداقات القطارات .
لا أستطيع أن أنسجم مع رجل لا أعرفه ، لا أستطيع أن أمنح
جنساً مقطراً معزولاً عن مشاعري ، على أية حال سأحاول ،
وقد أعود اليك امرأة أخرى) .

في شارع سوهو ، مقهى « ماكاير » .
نهبط السلم الحجري إلى المقهى .. صفيّر شبان مراهقين
يقفون حوله . الفت الانظار بسمرتي . أوقف المواء في
غابة الرجال بين الرصيف وباب القبو .. ليتني ، الليلة ،
أمزق الجدار الزجاجي ، وأنضمّ إلى العالم حولي ،
(ليلة ضممتني للمرة الأولى خفتني بكاء أخوس ، توصلت إلى
آهتي التي تتعري أن تكون بلا جسد ، كي يموت العري من
العالم) .

ندفع رسم الدخول . يمسك شاب بيدي ، بينما يغمس ريشته
في محلول ما ويمر بها على يدي . في النور البنفسجي يضيء

موضع ريشته . انها شارة الدخول ، شارة وطاويط المكان ،
وأحسني واحدة من يعاسب الحقول ، مضيفة وخفيفة ، وأحس
برغبة في الانطلاق ، في الحبث ، في اثاره سرب من الجراد يلاحق
نوري الخافت ، والمواء بدأ يترنح ويتناغم بهدهدة لذيدة في
داخلي .

لا أكاد أدخل حتى أجدني في مقبرة .. مقبرة من نوع
عجيب !

المقاعد توايبت سود عتيقة . الأضواء الحمر الخافتة تنسكب
من خلال عظام هياكل عظمية وظلال اضلاع القفص الصدري
تقطع المكان بجديد قضبان لا محسوسة ، والكؤوس التي يشربون
منها على التوايبت جماجم بشرية . وفي الوسط ، تحت
هيكليين عظيمين متعانقين ، علقا في السقف ، ترقص
مجموعة يصعب عليّ تمييز شبانها من فتيانها ..
(هذا الجليل الحديد في لندن يرعيني ، لرجاله شعر طويل ،
ونظرات مخنثة لا تطاق ... ما زال الرجل في بلادي صلدأ ،
يثير حنين فئاته إلى انسحاق كامل ... ما زال يعاملها على انه
هو الرجل ... على أية حال لا مكان لمثل هذا في مدينة
يموت من لا يعمل فيها) .

نجلس إلى تابوث غادره أصحابه للتو . الموسيقى دقات
مطارق مسعورة .. العناق ... رائحة الحمر ... في الحلبة زحام
ثيران يتدافعون في مصعد معطل .

دزدرا وشارلز وقفنا يرقصان . الزحام لا يتيح لهما مكاناً
للحركة .. المواء يتعالى من كل مكان ، وحشياً طويلاً ، مترنح
النبرات كأن ينبوعه هنا في هذه المقبرة .. مقبرة القرون الماضية

وقيم الأيام الغابرة .

هنا مدينة الحب الحديد ، الحب الطحليبي ، من يتمرد
يستحيل جمجمة يشربون بها ... المواء في داخلي يكاد يطغى على
كل شيء .. زعيق مفاجئ للحن أوتاره مشدودة متوترة كعروق
جبن متألم . أمسح العرق عن جبينني ، وأعب للمرة الأولى في
حياتي من الكأس التي وضعت أمامي . السائل مر ، أستطيب
مرارته . أمسح العرق عن جبينني . شاب يطاء على قدمي .
ألماها عن الحلبة . دزدرا ترمي فوق شارلز . يتكومان على تابوت
مجاور ، يزاحمان زوجاً بشرياً ينضح عرقاً ومواء . يتبادلان
القبلات بنهم واستخفاف وبالمادية نفسها التي يلتهمان بها أية وجبة طعام
(حينما تقبلني أرفض أن أصدق انك تستعمل الفم نفسه للحب
وللأكل ، وأحسني أسقط في غيمة مضيئة كثيفة ومنعشة أستسلم
لكهاربها ، لبروقها ورعودها ، أطفو عليها ثم أغرق إلى قاعها ،
أتمسك بك بتشنج غريق في نهر مقدس ، واستسلم لك بلذة
لحظة الموت ... لحظات لا تمنحها سوى شفيتك أنت ... أنت
وحدك) .

يستحيل المواء قهقهة . أعب من الكأس أمامي ، أسكب
نارها المر دفعة واحدة .

— هل تسمحين بهذه الرقصة ؟

بصعوبة أسمع .. أتأمله .. شاب نحيل طويل السالفين ،
شفتاه منتفختان بجوع زنج ...

في التابوت تحي أحس أنين امرأة ما حنطت لأنها رفضت
أن تعيش حياة ما فوق التابوت . لا مفر من الاختيار . ماذا

يدعم غبائي في وادي المواء هذا ، وذاتي المشتتة على طول قرنين
من الزمن ؟ فلأرقص .

انهض . يتعالى المواء بوحشية . اهتز بتراث امرأة شرقية ،
عاشت قروناً في الحریم تتعلم كيف تثير حينها تتحرك . أمامي
يقفز كشيطان في وليمة البدائين . أضرب الأرض بقدمي ، النور
ينسكب مترنحاً من الجماجم .

من مسامي يتفجر العرق والنحيب والمرارة ، لكنني لن
أهزم . لن أنسحب إلى التابوت . أتلوى ، أحاول أن أقطع
قيوداً لا مرئية . أرقص ، أحاول أن أحطم جداراً ، أن أجتاز
جسراً جثت من طرفه المغمور بالغمام ، واتجه إلى طرفه المغموس
بالدم والمواء وقرع المطارق .

تنتهي الرقصة . أعود إلى التابوت وأجلس عليه ، ينخيل إلي
ان المرأة في داخله تفهقه ، تثير جنون موائي... وأحس بأنني
أحقد عليها .. « جوليت » عصر الذرة ..

أراها خلال خشب التابوت . لها وجهي . لكنها تبكي ،
وأنا هنا امرأة خرجت للتو من مصنع البشر الآليين ، وجاءت
إلى مخزن الحب لتشتري علبة معبأة بالجنس ، تطهيتها بسرعة
وتلتهمها ، ثم تمسح آثار المائدة ، وينسى ما كان في أقل من
ليلة

دزدرا تهزني : لماذا لا ترقصين ؟

– لم أعجب بأي شاب بعد لأدعوه إلى الرقص !
الليلة ، الآن ، سأدعو شاباً ما إلى الرقص ، ثم إلى العشاء
وأذهب به إلى أفخر مطاعم المدينة . وإذا جاءت العنوز التي
تبيع زهوراً للعشاق فسأبتاع له زهرة حمراء ، يزين بها شعره

الأشقر الطويل الناعم . وإذا أعجبتني فسأرافقه إلى غرفته ،
وأبقى معه فترة ما ، ثم أترك له على المنضدة قبل أن أمضي
ورقة نقدية مناسبة . العلاقات الجديدة ليس فيها رجل وامرأة .
فيها طرفان ... أي طرفين .

وفجأة أراها ، فتاة النافذة العليا . المواء يتشنج ، تراني .
وتقترب مني ، رغم العتمة النسبية ، تتبينني كأنها تعرفني من
رائحتي كأني حيوانين في الظلمة ...

دون أية كلمة تجلس على التابوت إلى جانبي . المواء يستحيل
ضربات طبول . ايقاعات أجساد عارية مشدودة تؤدي رقصة
بدائية عتيقة في غابة تتعالى من أركانها المعتمة صوت المواء ..
ما الفرق بين هذه الفتاة وذلك الشاب الذي طلبني للرقص منذ لحظات ؟
(ما الفرق وأنت يا حازم ، أنت وحدك تثير في نفسي احساسني
بأنوثتي ، ومعك وحدك أستحيل امرأة ... أما الآن فلا جنس
لي ، لا جنس لي على الاطلاق) .

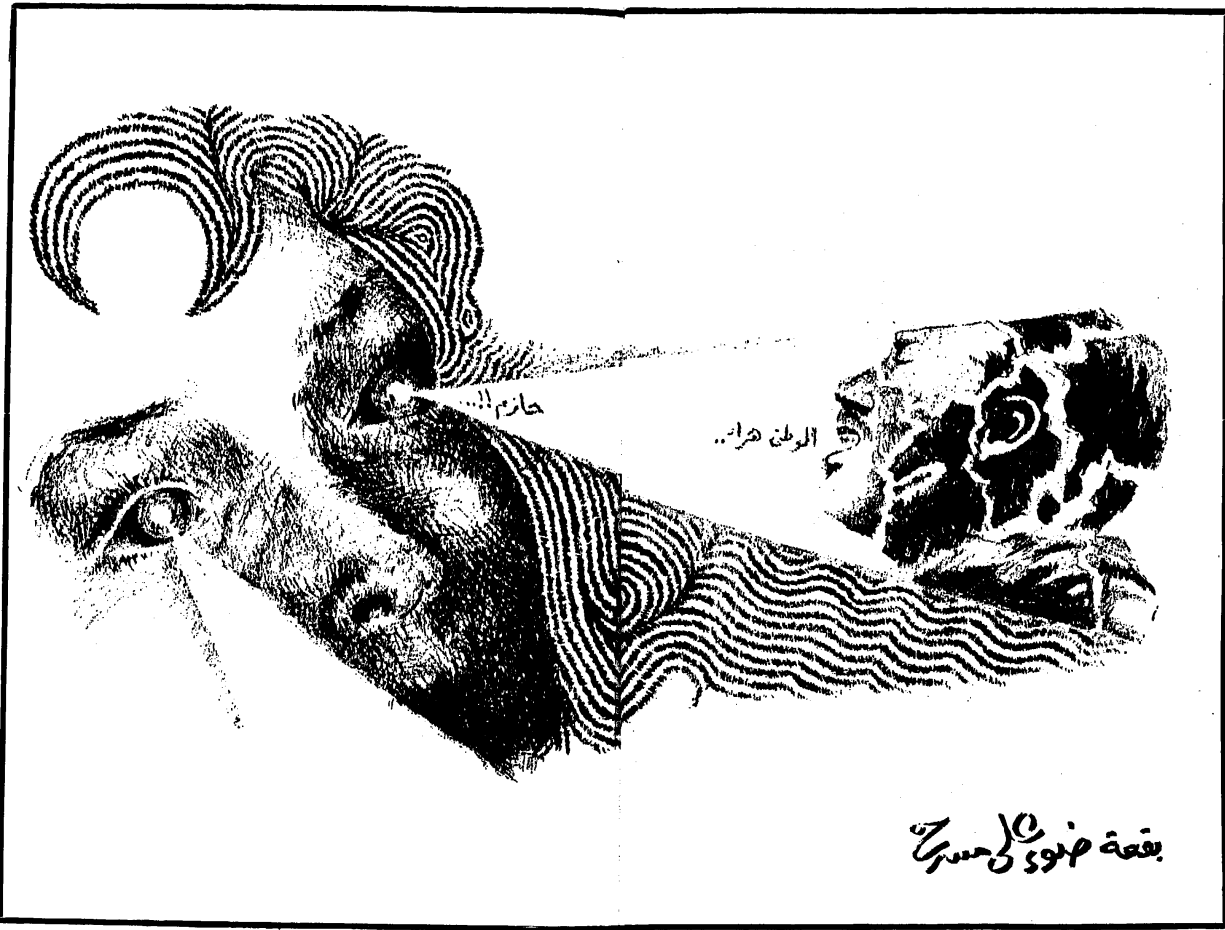
صامتتان . نصعد الدرج الخشبي . لا نتوقف أمام باب
غرفتي ، نتجاوزها .. أمام باب غرفتها نرث برهة ريثما تفتح
الباب .

في مواء القطة نشوة فرح مكتومة . تضيء النور . غرفة
حقيرة كل ما فيها جائع : الجدران جائعة للطلاء والمقاعد للكساء
وعلى المنضدة في الزاوية بقايا خبز وجبن لوليمة كانت منذ
البداية بقايا .

مواء القطة يتشنج ويعلو . الستائر ترتجف ، الفتاة الرجل
تسرح شعرها أمام مرآة فيها شرخ طولاني كبير يمزق وجهها

إلى شطرين .. لا أحس بأي خوف .
صمت كامل مشحون بالترقب ، حتى المواء في الداخل
يصمت ، منضدة خشبية إلى جانبي أستند عليها ،
(لا ريب في أنهم يتركون لها النقود هنا كل فجر) علبة سجائر
تخرج منها واحدة لها وأخرى لي ... تضع لفافتها بين شفتيها
المهترتين وتشعلها . تمسك بها في يدها وتقربها من الأخرى التي
وضعتها في فمها لتشعلها . تلتحم السيجارتان عند طرفين متوهجين
كالحمر . أجدني أتأملها . أهذا كل شيء ؟
وإذا رضيت بأن أعيش في مدينة تحولنا إلى سجائر متشابهة ،
فهل أرضى بأن يكون هذا كل شيء ؟ مجرد لقاء بالحمر
بالحمر ، ريثما تنتهي السجارة في دقائق !
أحس برغبة في أن أصفع شيئاً ما ، أكسر شيئاً ما ، يدي
في جيوبي أبحث عن نقود . أترك لها على المنضدة عدة أوراق
وعدداً من القطع الفضية . أفتح الباب وأخرج ، وأغلقه خلفي
بعناية ويلاحقني صدى المواء من جديد .

تُرجمت هذه القصة إلى الفرنسية



حازم البدر

الوطن هراء

بقعة فنون ومسرح

كانت هنالك بقعة ضوء تتحرك على الجدران ، وعلى
احجار الزقاق الناتئة ، باحثة عن وجه ما باصرار عنيد ...
« حازم .. حازم اين أنت ؟ »
وكان صدى صوتي حاداً ملتاعاً ، يثير شفقتي ، ثم
احتقاري !

« حازم ... يا حبيبي ! »
والبرد الرمادي تنفضه المصاييح المحتضرة ...
« حازم .. اين أنت ؟ »
والزقاق الطويل ، أتعثر بأحجاره النافرة ...
« حازم ، اين يدك ؟ »
والزقاق الطويل لم أدرِ كم سيصبح موحشاً ، إذا لم أجدك
في انتظاري ، كمادتك عند الدرج العتيق .
« حازم ، غداً العيد ... اقرأ ؟ »
واشهر بيدي رسالة أبي لأعرضها عليك . ولكنني لا أجدك
في ركنك ، ويغمرنني احساس غامض مفرج بأنك لست هنا ،
ولن تكون قط هنا ، فأشد على بقايا الرسالة بمسوة ...

وفجأة ...

تستحيل حروفها مفرقات صغيرة من مفرقات العيد ،
تنفجر داخل يدي واحدة تلو الأخرى ...

« حازم ! »

وإذا بالزقاق ، الذي كان إلى ما قبل لحظات ، مسترخياً
بأهله النيام كبطن متخم كسول ، يتفجر فجأة مع تفجرات
الكلمات داخل يدي ، ويستحيل دنيا من الشرور المفاجئة ،
يتوهج بنيران مجهولة المصدر ، مسعورة الشرر والزعيق ...

أبواب الجيران وأهل الزقاق تفتح ، وينسكب الناس من
الاسطح أيضاً ومن المداخل وعلى أنابيب المياه ، يتدفعون في
موكب رهيب ، موكب عجيب مريض الثورة : ليس فيه
ضحك أو بكاء أو نباح أو هتاف بالضبط ، فيه هذه الأشياء
كلها مختلطة بلا ضابط ، أو منطق ، أو هدف .

مئات من الفارقين في ملابس تنكرية ، عجيبة التناقض ،
والمسدسات تنطلق وحدها ، وكل شيء ، أسير لعنة وباء أسود ،
رهيب الهذيان شرس التدمير ..

« حازم ! »

وهم يحملونك مع مجموعة أخرى من الرفاق إلى حيث
لا أدري ...

والزقاق بوتقة من النيران والفوضى والهياج تخضعها يد مجهولة
شريرة ..

« حازم ! »

واستحيل أرنباً صغيراً عبثاً يركض بين الجموع ، ويقرض
الأيدي والاقدام والرقاب ، ويسقط ، يقفز ، يتمزق ،

يركلونه ، يقفز ، وينوح عند الدرج العتيق ...

« حازم ! »

وفجأة ...

تموت الأصوات والألوان وكل شيء ..

جثة ليل عتيق تغطي ما كان زقاقاً ...

لا لون ، لا هبة ريح ، لا بصيص ، لا ذكرى ،

لا شيء .

وأنا أرنب صغير ، لا يدري لماذا يقفز ويشمش

الأرض ..

الأرض رماد !

وتحت كومة من الرماد أجلك مدفوناً حتى العتق ...

وتصحو الروائح والألوان والابعاد ، وتصير الأيام قطعاً

من الارامل يندبن أحبابهن الشجمان في موكب داعم الاناشيد.

« حازم ... لم أدركم أحبتك حتى فقدتك ! »

لم أسمع صوتي ، وتذكرت اني صرت أرنباً صغيراً ، فوق

الرماد الذي دفنت تحته . أعدو مسعورة مملهوقه .

عينك ، كما أعرفهما ، تمطران غموضهما الساحر المحجب .

احفر التراب حول عنقك .

احفر نفقاً ، أتسلل منه إلى صدرك . ارخي بأذني الطويلتين

سوف أغفو كما دتني هنا حيث أحب ، بين ابطك وصدرك ،

ولكن ، هنالك ثقب يتزف منه الدم بوحشية .

ثقب يتزف منه الدم بوحشية هنا في صدرك ...

لم أعد أرنباً .

أنا نابان يقطران دمأ وصراخاً : « حازم ! حازم ! »

يغمرك الرماد تماماً .
يعود كل شيء كما كان : الزقاق الطويل ، الصمت ، الأبواب
المغلقة على الناس النيام ، والبرد الرمادي تنفضه المصاييح
المحتضرة .
لم يبق إلا همسة غامضة المصدر ، تخفت حتى تموت ، تهتف
باسمي : مادو ...
وبقعة ضوء تتحرك ببطء في ذلك المسرح الميت الحزين ...
وصرخة تمزق الهدوء الدامع من وقت إلى آخر : حازم !
حازم !
أفتح عيني وأنا ما زلت أصرخ « حازم » .

أحاول أن أخنق بقية الصرخة . أخي الواقف في الغرفة شب
المنعمة يتأملني بعينين خاليتين من أي تعبير . أمام مدفأة غاز
صغيرة ، يتابع ارتداء ثيابه بسرعة وصمت ، ولكن بقايا وجه
حازم الممزق - كما رأيته في ذلك الحلم المرعب - ما تزال عالقة
بين أهدابي ، وهمسته « مادو » تطلق من نقطة واحدة في أعماقي
آلاف الاسهم ، وفي كافة الاتجاهات تمزقني ، تفتتني .
لو خطر لأخي سليم أن يداعبني كعادته ويكشف الغطاء عني
في هذا الصقيع ، ليستمتع بملحمة من شتائي الوطنية المهداة
إليه وإلى برد لندن ، لصعق ، ولرآني أنزف بمسامي كلها
ولهرب مذعوراً !
لكنه لم يكشف الغطاء ، وظلت مدفونة تحته مع خمس
زجاجات معبأة بالماء الذي كان ساخناً .

يحمل أخي كتبه ، وفي وجهه تعبير يقول انه تأخر ثانية على موعد الدرس ، ومع ذلك يتلصق أمام الباب . هنالك ما يود أن يقوله :

— لم ألاحظ أن خبر خروج حازم من السجن ، ووصوله إلى هنا للالتحاق بعمله في السفارة ، قد هزك هكذا !

— ...

— لم يبد على وجهك أي تأثير حينما أخبرنا « نادر » ان حازم يقاسمه مسكنه ، ريثما يجد شقة مناسبة ...

— ...

— ولم يبدُ الأسف على وجهك حين أخبرنا نادر ان حازم اعتذر عن مرافقة الاخوان والاخوات إلى دارنا الليلة ، للاحتفال بالعيد ...

— ...

— كنت تعرفينه جيداً ، أليس كذلك ؟

— ...

ماذا سوى أن أمعن صمتاً !؟

(أجل ! عرفته جيداً كما لم يعرفه أي انسان . يا للفجيعة كم عرفته ، حتى استعبدتني تلك الومضات المضيئة في اطلالته على الأشياء !)

واستطرد أخي يقول : ثم اني لا أستطيع أن أفهم لماذا لم يتصل بك ، رغم انكما تعرضتما للموت معاً أكثر من مرة على ما سمعت .

(أجل ! ان لم تكن رابطة الحب والحياة ، فمن أجل رابطة الموت . ليلتها سمعنا الصفارة . التصقنا بالحدار الرطب

في الرقاق العتيق ، والقنبلة الموقوتة بين جسدنا تنبض ، ونحن
نزداد التصاقاً كي لا نسقط إلى الأرض . ونزداد اندساساً في
رحم الجدار الرطب اللزج .

ومروا بنا . كان لا يصدق أنهم لم يرونا . ظننتهم يهزأون
بمعنونا تعذيباً ولكنهم لم يرونا فعلاً !

كان لجسده تلك المرة طعم الجدار الطحليبي الرطب . وقد
انصرفت بسرعة أحمل التعليلات ، وكدت أصفعه لما قبلي ،
أحسست قبلته جزءاً من المهمة ، وكفرت به لثانية . وحزنت
من أجلنا ، فقد حولتنا « مهمتنا الانسانية » إلى حجارة شطرنج
بلا عواطف انسانية . ها قد ماتت الشهوة . وماذا بعد !

— حازم يعرف جيداً أنك هنا .. ان ذلك لا يصدق . لقد
تعهد نادر ان يروي له مطولاً عن سهراته في دارنا حيث
يشاركني تحضير الدروس ، وتعهد أن يحدثه عن دورك الكتيب
في أمسياتنا ، ان ذلك لا يصدق !

(وأنا أيضاً لا أستطيع أن أصدق أو أفهم منذ ذلك اليوم ،
حين القمت آلة الاسطوانات قطعة نقدية جديدة في ذلك المقهى
العتيق في لندن . وربما للمرة العاشرة ، علا أنين المطرب
« هجرت مدينتي ... هجرت شمسي ... هجرت سائي
الزرقاء ! »

تأفف بعض اللندنيين . حدثوا في وجهي باستنكار . أخفيته
تحت نظارتين سوداوين. كبيرتين ، وأشحت به عن مشهد
الدموع التي كانت تغافل عيون بعض الغرباء ، المحروقي
البشرة ، الذين هجروا مدينتهم لسبب أو لآخر . ولمدحهم شمس
وسماء زرقاء ، وليست كهذا الجحيم ...

فتح نادر الباب يومئذ ، ودخل يلهث فقلت له :
- أين أخي ؟ لماذا جئت وحدك يا نادر ؟
- خبر لا يصدق .. حازم وصل !
خشيت أن أصدق فأموت .
- هو هنا منذ أيام ثلاثة !
خشيت أن أصدق فأموت .
- كان معي منذ لحظات . سوف يقاسمني مسكني . وقد
أخبرته انك موجودة هنا ، في مقهى « التوسكانا » .
لن أصدق .

- ولكنه اعتذر لأمر هام ، وذهب !
خشيت أن يرى نادر في وجهي انني صدقت . لذا انطلقت
راكضة في الزحام . وطيلة أسبوع ، كنت اندس في الزحام
هاربة ، فرحة بالمطر الذي يجعل الوجوه جميعاً تبتل كوجهي ،
لأنني أيقنت من ان حازم يتجنبني ... وأنا أيضاً لا أستطيع أن
أفهم الآن أي شيء !
ليلة ذهب حازم ولم يعد ، عرفت انه في السجن . وكنا
يومئذ معاً في مدينتنا .

ليلة غادرت مدينتي ، فهمت لماذا غادرت مدينتي ...
والاشهر المريرة هنا في لندن والانتظار الوحش ، كل شيء
كان مفاجئاً وقاسياً . لكنه أيضاً كان واضحاً ، ومنطقياً . وفي
نهاية التفق كانت ما تزال نقطة من نور هي اليقين ، هي الايمان
القاطع النهائي بشيء اسمه قضية !
أما الآن وحازم هنا ، وحازم يتهرب مني دون أن يقول

كلمة واحدة . وهذه المقايضة الغامضة . الآن اختلط كل شيء
وعمت الفوضى !)

وعاد أخي يقول : على أية حال ، حاولي ألا تفوتك
سهرتنا الليلة . سي جلب كل منهم معه صنفاً من أطعمتنا بعده
بيده ، واسطوانة ، وصورة ، وممنوع التكلم بالانكليزية ، بل
بلغتنا العامية فقط . سنقضي عيدنا وكأننا في مدينتنا !

(وكان حازم يحب مدينتنا كما لم يحبها أي انسان .

وكانت أصابعه تكاد تنفوس في فراغي ، وأنا أكاد انفوس
في صدره ، والغروب يفرس حرابه في كل شارع وسطح وحقل
ونحن نطل عليها من أحد المرتفعات .

كان يردد : أعبدتها ! أعبدتها !

— حازم .. أحس بأنني أملك العالم كله .. اني سعيدة !

— أحس بأنني جزء من العالم كله . ذلك ما يسعدني !

— أنا أملكه !

— أنا انتمي اليه ، وبذلك املكه !

— انا املكه !

— وأنا أفكر بآلاف الرجال على اكتاف آلاف المدن

الأخرى ، وقد ضموا اليهم حبيبتهم كما أفعل الآن . ذلك

الاحساس سوف يستعبدنا لتلك الأرض أبداً ..

— أنا أملكه !

— وأنا أحس بانتمائي إلى الملايين في ملايين المدن الأخرى .

الاحساس المشتركة الصغيرة التي تربط كلا منهم إلى شوارعها

ومدارسها وملاعبها وحاناتها ..

– أنا أملكه !

– ليست المشكلة أنا وأنت . المشكلة اننا نفقد وجهنا حيناً
تسخ مدينتنا ، ونموت إذا تشوهت أو انتحرت ، اننا ندافع
عن أطفالنا حيناً ندافع عن قيمنا .. اننا ندافع عن أنانيتنا حيناً
نفديها ..

– أنا املكه !

– أجل ، تملكينه يا عنيدة ... حازم تملكينه !
ثم شفتاه تنفثان الشهوة المخمورة . مهارته في الصمت أيضاً
لا تجارى !)

ويقول أخي : هل سمعت ما كنت أقوله ؟ مادو ... هل
سمعتني ؟

– اجل ! اعني ، لا .. لا ياسليم آسفة !

– لا ألومك . باختصار ، ليس عليك اعداد أي شيء
للمساء . صاحبة البيت موجودة هنا ، تنظف الشقة . وسوف
تتقاضى « باوند » كامل عن الساعة ، فاصرفها بأسرع وقت .
وأرجو ألا تتخلفي مساء كعادتك !

(دوماً أتخلف مساء ...)

أكره أن أراهم ينهارون واحداً بعد الآخر : سليم ونادر
وعزيز وزهير و .. يتجاهلون المعنى الحقيقي لما يدور .

يشاركون بعضهم البعض في التستر على سقوطهم المفجع .

أكره المشهد المعتاد : أخي جالس إلى منضدته ونادر يشاركه
حل مسألة ما ...

يقولان انهما انتهيا من الدراسة .

سلم يمسك بأوراقه ، عبثاً يحاول نظم قصيدته : « لأننا
بلا مدينة .. »

منذ وصل إلى هنا وتشاغل بالدرس وهو يكتب ويمزق ..
صديقه ماغي ، فأر طيب أزرق العينين ، يتشاغل عنه
بقرض كتب « ايان فلمنغ » ..
هي تقرأ ، وتشرب .

وهو يشرب ، ويكتب ، ويمزق ، ويمزق ...
ثم يفتح طرداً وصل مؤخرأ فيه كل ما يصدر من نتاج يزوده
به صديق وفي باستمرار ، وينكب على أوراقه من جديد ، يخط
فصلاً جديداً في مؤلفه الذي يعده للطبع ، والذي يتقد فيه كل
ما يصدر من نتاج .

يكتب النقد نخجره ، كأنه ينتقم من قصيدته الحبيسة في جوفه .
قصيدته التي يعرف كما أعرف . انها رائعة ...
يحزنه ان الجراء تبقى ، واللوة تجهض !
ونادر مع شقراء جديدة ، المهم أن يكون شعرها طويلاً ،
لأنه يقضي بقية السهرة يشرب . ويضفر شعرها كما تفعل
الفلاحات في قريته !

وانا ... يا انا ...)

الراديو . فليتكلم أي صوت خارجي ويخذ ذلك الشريط
المؤلم في داخلي . الراديو ، أمد يدي وأدير زره . رسالة أبي
ما تزال بين أصابعي منذ الليلة الماضية ، لحظة استلمتها قبل أن
أهرب بها إلى فراشي . الراديو ، لا أدري ماذا يقول . ولكن
الرسالة تقول : « العيد ... »

ما العيد في دورنا وشوارعنا ؟

الليلة ، من يسقط في طنجرة السكر المغلي ؟
(أمام باب المطبخ ، وقف أبي واخوتي يضحكون بشدة
ويشرون إلي ، بينما سارعت أمي لانتشالي من طنجرة السكر
المغلي (القطر) . وزادت ضحكاتهم وهم يشاهدون آثار زحفي
على مفرش الحلويات الكبير ، حيث التهمت في طريقي فوقه
نفاقاً من الحلوى ، وكنت أقطر بالسكر دون أن أتخلى عن
« البالون » في إحدى يدي ، لما اختطفني أبي منها وهو يقول :
هاتها ، دعيني أكلها !

ثم رفعتي عالياً . وخلف الحصن الخشبي استطعت أن أرى
السوق المسقوفة ، مزينة ومضيئة تعج بالحركة والاصوات .
وكان صوت المؤذن يتدفق خلال مربعاتها الصغيرة مع دفء
منعش ، وقهقهات اخوتي الذين لم يكونوا قد قتلوا بعد تملأ
المكان لم يبق منهم إلا سليم ، ولم يعد يضحك !
صاحبة الدار تفرع الباب . تدخل . وجهها أنف كبير
أحمر ، وعينان بلا أهداب . قلت لها : بعد دقائق أغادر الغرفة
وتستطيعين تنظيفها .

العيد ؟

عويل الرياح . العاصفة . وصوت الراديو الرتيب الاخبار .
قضية هامة . يجب أن أنصت . يقول : فييتنام ... مؤتمر ...
حرب ... سلام ... يقول أشياء كثيرة عيناً تشدني . صوته
ازيز آلة رتيبة . فجسأة أجدني انصت باهتمام .. المذيع قد
عطس !

مسكين ! غداً تطالب الصحف باستئصال رثيته ، وينكب
جيش من العلماء الشقر ، يجرون أبحاثهم لاستئصال رثات المذيعين ؛

هذا بينما رثات الملايين من الغرباء تمتلئ دماً وشوقاً إلى رائحة بلدهم ، دون أن يفعلوا شيئاً من أجلهم ، وهم يدرون أو لا يدرون ، أنهم بطريقة ما ساهموا في تمزيقها ...
إذا نجحت في المسابقة ، ورضوا باستخدامي كمدبغة في قسم الاذاعة العربية ، فسوف يكون علي أن أتعلم التنفس الغلصمي ، كالاسماك ، بلا رئة حتى لا أعطس . وسوف أفضي يومي في غرفة الاذاعة الزجاجية المملوءة بالماء ، كسمكة زينة في حوض معروض للبيع . وهذا أفضل مصير يمكن أن أحلم به لو بقيت هنا ...

أجل ! سأصبح واحدة منهم . آلة ، ولكن بلا وطن ...
وكل صباح ، كل صباح ، سأبدأ من هنا ...
وخلف النافذة التي كشفت ستائر الرمادية ، أرى الفراغ الرمادي تأكله العاصفة ، والسماء رصيف ، وصف طويل من الناس انتظم بانتظار « الباص » كدمى واجهات المحلات العامة ، بلا حركة تدمر أو تأفف أو احتجاج .
من هنا سوف أبدأ إذا بقيت .

إذا بقيت سأصبح مثلهم . هل يمكن هذا ؟
الصق وجهي بزجاج النافذة مذعورة ، فقد رأيتني واقفة في الصف الطويل ، اقضم « سندويشة » أحملها باحدى يدي ، وفي اليد الأخرى أمسك باحدى الصحف اقرأ « صفحة الجرائم » وفي وجهي استسلام الأموات ولا مبالاة كوجه جارنا . الطبيب النازي الذي لا يعرف أحداً من أية مدينة جاء مند أعوام بعيدة ...

أصرخ : « لا » . اضرب زجاج النافذة بيدي المغلقة على

الرسالة ، فينكسر . ولكن المنظر لا يتبدل .. الفراغ رمادي ،
والسما صيف . و «الباص» قد وصل ، وهم يتدفقون إلى
جوفه ، وأنا قد غبت في جوفه ...

دفع الدم الذي يتدفق من يدي لذيذ .
صاحبة الدار تطل برأسها من الباب . تتمم وهي تتأمل لوح
الزجاج المحطم : عشر شلنات !
كحردون ، تسحب رأسها بسرعة واسمعها تغمغم : اولئك
الشرقيون ...

أنا فرحة بالتزف . فرحة بنبض الدم الذي يتفجر . كنت
أظني صرت جافة جافة مقددة حتى لو مددوني تحت أحد
قطارات الانفاق لما حدث شيء ، ولظلت ورقة جريدة ، عتيقة
جافة مملوءة السطور !

. . .

أحمل يدي . أمضي بها إلى جارنا الطيب ، ذي الوجه الميت
المحنط بصلابته الصخرية ، والتي لا تعبر عن عمره ، أو أية
خلجة في نفسه ، ان كانت له نفس .
أغادر بابنا نحوه ، لا يدهشني أن أرى صاحبة الدار تمسح
آثار الدم عن الارض بقرف ، ثم تنظر إلى ساعتها !

. . .

الرسالة لا تزال داخل يدي . ويدي لا تزال تنزف . بها
أقرع الباب . تسقط الرسالة إلى الأرض والدم يغطيها . انفجر
ضاحكة . اضحك بشراة . يا له من مشهد «رومانتيكي»
تافه ، يصلح لفيلم فاشل ، ولجمهور مراهق : « الرسالة

الدامية» . شيء يثير القرف حقاً ، أهذه نهاية التماسك والنضال؟
الطبيب خلف الباب المفتوح . الوجه الصلبد المحنط نفسه .
إذا بقيت هنا لا ريب في أن وجهي سيصبح كوجهه ، وسوف
يتهمس الجيران ويحدثون باسم المدينة التي جئت منها ، وقصتي .
ظل جامداً خلف الباب ، وهمهم بطريقة فهمت منها انه
يستنكر مجيء كلبه الضخم الرهيب خلفه أيضاً . أعرف انه لا يحبني
منذ أول لقاء لنا . كلاهما لا يحبني .

(منذ اليوم الأول عرفت لماذا اختار أخي البيت رقم ١٦٣ ،
وست الدلين . فقد كان يقع تجاه بار «فرسان دون كيشوت» ،
ولا يفصل بين الدار والبار إلا عدة أمتار .

كنت متعبة في ليلتي الأولى . خلفت أخي في البار . بكيت
وأنا أسمع الحليد يتكسر تحت أقدامي ، وأنا أقطع أرض الشارع
على الدرج الخشبي العتيق كنت أمسح دموعي لما شاهدتهما يهبطان :
الكلب وصاحبه .

ولما حاذاني الكلب سمعته يهمهم . والكلب منذ طفولتي
يخيفني أكثر من القنبلة الموقوتة وصفير الشرطة . خوف غريزي
عفوي لا يفسر . وجدنتني أصرخ ذعراً وأقفز بتوتر أعصابي
كلها لأتمسك بصاحبه . كم كان حازم يطرب لهذا المشهد ويعلق
ساخراً : المناضلة !

لكنه دفعني عنه بخشونة كأنني جرحته شخصياً حيناً اعتبرت
الكلب حيواناً يخيفني وقال باحتقار : انها لا تعض .. ولا تتحرش
بالناس الذين لا تعرفهم !)

كلاهما - الطبيب والكلب - يتأمل الدم المتفجر من يدي ،
كأنهما يرقبان نشرة أخبار مكررة في التلفزيون .

يسأل ، وبخشونة : ماذا تريدون ؟

الكلب يهمهم ، وبشراسة ..

تنصهر مدينتي في عيني دموعاً جافة تماماً . مازال للدم هناك
معناه . ربما هو معنى ذو حدين ، لكنه أفضل من هذا العدم .
ينصهر إحساسي بالألم ويفيض ، الدم يفقد معناه لدي أيضاً ،
كالألم ...

يكرر : ماذا تريدون ؟ أنا في اجازة ...

قلت : جئت استعير ابرة لأنني اريد أن أخيط ثوباً !

...

إذا بقيت هنا ، إذا بقيت هنا ، هل يمكن أن أستحيل إلى
شيء لا انساني كهذا ؟

إذا كان ذلك ممكناً ، أي عزاء ؟ إذن سوف يتوقف الألم ،
ولن أحزن من أجل نفسي ، لأنني سأكون قد تبدلت ، وصرت
مثله ..

إذا بقيت هنا ، سأكون مثله ، وسأرضى برجل مثله ، ولن
أحلم برجال كحازم ، مازالت في قلوبهم حرارة الصحراء
ونزقها وطهارتها .

(لم أكن أقصد في تلك الليلة أن أهتف له ، فقد كنت
أعرف انه في اجتماع عام كبير ، وانه رشح نفسه للقيادة ، وان
المعركة محتدمة ضد بعض منافسيه المندسين بين الصفوف ، كعملاء
لبعض الجهات التي يهمها تخريب تلك الصفوف ..
وددت أن أخاطب إحدى صديقاتي بالهاتف . ولكن أصابعي

أدارت بصورة عفوية القرص على ارقامه . فوجئت بصوته :
الو ... نعم !
- مَنْ ؟
- حازم ! ..
- آسفة ..

- أهلاً .. أهلاً بك .. منذ زمن طويل لم أسمع صوتك ..
اني لفي شوق اليك !

قالها بحرارة ، كأنه ليس في أخرج لحظات المعركة ، بصدق
وود ، كأن كل ما كان بيننا ، وكل ما لم يكن تدفق في صدره
في تلك اللحظة ، رغم وعيه التام بعشرات الاسهم المسمومة ،
المختبئة في الظلمة ، والتي تهدف الصدر الكبير نفسه ..
دقيقة ، كانت لها ابعاد اعوام من الغزل المنتظم المخطط له ..
أحسسته في تلك اللحظة غالباً حقاً ، لأنه هكذا ، لأننا هكذا ،
ما زالت لنا موجاتنا التي ييئها أحدنا ويلتقطها الآخر متجاوباً
معها ، ورغم أحلك الانواء !)
إذا بقيت هنا ...

ماذا يتبقى مني ؟ ماذا تبقى حتى الآن ؟

...

اربط يدي بنفسى مستعينة بأسناني ...
الجروح تلتئم والجسد يستمر ، والدم التازف هو وحده
الذي يضيع .. والجسد عاق !
اربط يدي بشدة . أحنو عليها . يتوقف الترف ، وما نرف

ضاع . لا أدري لماذا أرى شوارع مدينتي ، عروقها التي نزلت
ذات ليلة !

لا أدري لماذا يغمرني يقين مريب بأن جروحها التامت ، ودمها
النازف تجدد ، وما نزل منها فقط ضاع . والمدينة كالجسد ،
عاقبة ...

والعيد مستمر ، العيد يبقى ، والأطفال فقط يتبدلون !
والدم النازف ، ما مصيره ؟
إذا بقيت هنا ، إذا بقيت هنا . ماذا سأكون ؟ ماذا سيبقى
مني ؟ ماذا تبقى مني حتى الآن ؟ ما أنا ؟
نحو المرأة أتحرك . خوف غامض ينمو في أحشائي له طعم
الخطيئة ، كطفل نسيت اسم أبيه لأنني كنت ثملة . نحو المرأة أظل
أتقدم لأعاقب خوفاً . أقف أمامها .
لا أرى أحداً في المرأة !

أرى الغرفة داخلها ، وفارغة لا أحد فيها !
أزداد اقتراباً .. الأصبغها . أبحث عن صورتي .. ما أنا
الآن ؟

أشهق . أرى وجه الطبيب فيها ، باهت الملامح شاحباً .
أراه خطوطاً أولية للوحة لما يتم رسمها بعد .
أحدق فيه لأتأكد ، فيضمحل وتختفي خطوطه شيئاً فشيئاً
حتى لا يبقى من وجهه سوى بقعة ضوء مشوشة تزداد تركيزاً
ووضوحاً وتصبح بقعة ضوء فارغة ...
أبتعد عن المرأة .. أتحرك في الغرفة ، من المقعد إلى المكتبة
إلى النافذة ذات الستائر المسدلة ...
وفي المرأة ، أرى بقعة ضوء تتحرك في الغرفة ، من المقعد

إلى المكتبة إلى النافذة ذات الستائر المسدلة ...

(طيلة شهر ...

كل ليلة ، كنت أستسلم لبرد مقعد ما في الصالة ، أرقب المسرح بذهول لا أجد له تفسيراً ...
كانت المسرحية تدور كلها في جو شبه معتم ، إلا من ضوء كشاف قوي ورفيع ، يحترق عتمة المسرح عموداً من نور وينصب على الأشياء والأشخاص بقعة من ضوء تتحرك على المسرح .

بصمت لا مبال عجيب ، تسلق الوجوه ، الحدران ، يتبدل لونها أحياناً إلى أخضر رمادي حزين ، إلى أصفر أبله ، إلى أحمر دموي ، لكنها بعد ان تسحب عن الأشياء لا تخلف عليها أثراً أو خدشاً . ولا تمتزج بها ، ولا تتبادل أي شيء معها ...

انها هناك ، وليست هناك ..

لا أدري ماذا فيها كان يشلني ، يأسرني ، يرعبني !
أية فجيعة ان يكون العيد حقاً هناك ، في مدينتنا !
كأننا لم نتحرك في شوارعها وأزقتها ، وبيوتها مشاعل تستميت لتطهر ، ولو لزم الأمر أن تحرق .
كأننا ما كنا سوى بقع ضوء على مسرحها ، ولم يتغير شيء سوى المسرح .

لن أصدق ! سيقتلني أن أصدق ان الحقيقة الكبرى فوضى من الوحل الذي يفرق العالم !

...

العيد . الوحل . اليقين ، الترف ، الجسد يبقى ، كالمدينة ..
يخونان الترف .
لا أدري لماذا أحس بحاجة لأن أنظف شيئاً ما ، ان أغسل
شيئاً ما ، أي شيء ... الوحل ! الوحل !
ألملم ملء حقيبة من ثيابي . سوف أغسلها للمرة الخامسة
خلال هذا الاسبوع ، ودون أن أرتديها مرة واحدة !

...

ألقم الآلة قطعة النقود . يفتّر ثغرها عن كوب من الصابون .
الآلة الأخرى أحشوها بالثياب : قطعة نقود . زر ، ويتفجر
الماء . أسكب الصابون . زر آخر ، وتلوك الثياب .
كمن انتهى من دفن جثة ترهقه ، أتلفت حولي . الغرفة
صغيرة ، وعلى جدرانها الثلاثة اصطفت آلات الغسيل . في الوسط
مقعد خشبي طويل بلا مساند للانتظار . أتهاوى فوق خشبه الذي
يذكرني بالاديرة .
صوت غريب مترنح الكلمات يخاطبني مشيراً إلى رباط يدي
الذي صار دامياً : « يبدو أن يدك مصابة بالرشح أو التهاب
الجيوب ! »

أنصب على وجهه بقعة من ضوء : وجه متعب لزنجي ، نبيل
السواد ، حزين حتى الجريمة . راثحته تدل على انه سطا على
مخزن للخمور وشرب كل ما فيه .

— هل تعرفين من أين أنا ؟

— طبعاً أعرف !

فقد سألتني وهو يخرج من جيبه موسى صغيرة !

- هل تسخرين مني مثلهم؟ .. ألا تصدقين انني جئت من
مكان ما ، ولم أولد هنا في حجرة الغسيل ، أو حجرتي
الحقيرة ؟

أتماسك . أعرف انه ثمل ومتألم ، وانني لو كنت ثملة ،
وحملت موسى ، لما قلت إلا كما قال . ولو طعنني لما كان
يقتلني بالذات ، كان يقتل في شخصي كل هزة أو احتقار سبق
ان لقيه من آخرين .

- طبعاً لا أسخر منك ، فأنا أعرف انك جئت من مدينتك !
- هذا رائع !

يستحيل طفلاً يبكي . ينوح كما تنوح الرياح في غابات
بلاده : أنا من افريقيا الشرقية .. هل تعرفين أين تقع افريقيا
الشرقية ؟

- طبعاً ... افريقيا الشرقية .. أ .. افريقيا الشرقية ... تقع
في شرقي افريقيا !

يقفز على قدميه ، ملوحاً بالموسى استحساناً . زبائن المكان
تم تسربهم جميعاً إلى الخارج منذ بدأ حديثه (الودي) .. ينحني
أمامي : عظيم ! انني سعيد بلقائك ياسيدي !
وخلفه ، تنتصب قامة رجل البوليس العملاقة . تجره من
يده . يستسلم لها بلا أية مقاومة أو تفكير ..

بصعوبة ، أتمالك نفسي ، كي لا ألحق به ، وأسأله بدوري :
هل تعرف أين يقع بلدي ؟

• • •

وطنه ، وطني ، أي وطن ، وطن أي انسان !

لماذا ، لماذا يحدث هذا دوماً في كل مكان ؟
لماذا فجأة ، تختلط الاشياء والمفاهيم ، ويبدأ الترف المرير ؟
ماذا حدث هناك ؟

لماذا لم يتصل حازم ليقول - على الأقل - ماذا حدث ؟
هل هو غاضب ؟ هل هناك وشاية ؟ هل صار مثلهم ،
يدين بلا محاكمة ، رغم اننا كافحنا ذات يوم كي لا يدان انسان
بلا محاكمة ؟
لماذا ؟

أترك ثيابي للآلة . ما حاجة المشردين للناقة إذا كانوا لا يملكون
داراً ؟

لاني بحاجة إلى اليقين ...
حازم . أين حازم ؟ .. أريد أن أعرف ا
أنطلق في الشوارع بقعة ضوء ضالة ، بين آلات مصنع
ضحخم بارد . حازم ... أين حازم ؟

* * *

لا أدري كم من الوقت انقضى وأنا أسير هكذا ...
ليل لندن الاجرب يجثم على كل شيء ، ويخص صدري
بثقله كله ...
كنت أعرف بيت نادر جيداً . ومع ذلك ، تهت طويلاً
قبل أن أضل واضغط الجرس .
نادر الآن في بيتنا حيث يحفلون ، إذا وجدت حازم فسيكون
وحيداً .

ثانية أضغط الجرس . عبثاً أرفع جثة يدي عنه ، حتى يفتح الباب .

وحازم !

انه حازم !

أنا مئات من العيون ، أتأمله بها ، أعيه ، أدركه خلال ثوان ، وأتمنى لو ألقاها كلها واحدة بعد الأخرى ، وييدي . أهذه بقايا العملاق ؟

يتقدمني ، وبلا مبالاة كسول : « أهلاً مادو ! » .

يتشاءب : « تفضلي » .

يسارع إلى كرسي : « لقد أيقظتني .. لماذا لم تضربني موعداً ! » يتشاءب من جديد .

اني عاجزة عن التصديق ...

أصرخ : حازم ! حازم !

وبصدى صوتي حاد ملتانع يثير شفقتي ، ثم احتقاري .

أصرخ : حازم !

أتمنى أن أكون في حلم آخر . وان يوقظني صراخي كما

حدث صباحاً !

لكنني لم أستيقظ . وحازم لا يزال يتأملني بسخرية ، وابتسامة مشلولة تمد أرجلها العنكبوتية على وجهه وتملأه بالخطوط النفرة المستهرة التعبير .

— أرجو ألا تصرخي هكذا . سترعجين كلاب الجيران ،

ثم انني موجود أمامك !

— أنت حازم ؟ أنت ؟

— أجل ! أنا ، وكما لم أكن أبداً !

- وحازم الذي عرفت !
- كان غراً ، مثلك !
- ثم ؟
- اكتشف الحقيقة الكبرى !
- أين ؟
- في السجن !
- ومدينتنا ، واليقين الذي كنا نعمل من أجله ؟
- مسكينة ، يبدو انك ترددين هذيان مراهقتي كما لو كانت قرآناً !
- ولكن ، حازم .. هل نسيت ؟
- لا ، لن أنسى كم كنت غيباً !
- حازم !
- شكراً للسجن ، ولغدر الاصدقاء !
- حازم !
- سأقول لك باختصار : اسمعي هذا اللرس الجديد ، واحفظيه وحده .
- حازم !
- ليس في الحياة حقيقة تستحق أن يموت الانسان لأجلها ...
- حازم !
- الوطن هراء ... أبة دار دافئة مريحة أملكها هي وطني !
- حازم !
- والمبادئ ليحكم الاذكاء باسمها ، ويموت الأغبياء من أجلها !

- حازم !
- والشعب طفل غببي ، ينادي أي سارق يختطف أمه :
يا عمي !
- حازم !
- والتضحية مصير الخراف في أعياد الجلادين الجياع ...
- حازم ...
- والمدينة مومس بلا ذاكرة ولا قلب ، يمتلكها من يحتويها
بين ساعديه !
- حازم ... و .. و ..
- وماذا تودين معرفته أيضاً ؟ أسألي !..
- حازم .. وحبنا ؟
سؤالي نكتة ؟ لا أدري لماذا ينفجر ضاحكاً برعونة .
- حبنا يا مادو .. انه أحد أغطية الفراش التي نستر بها عن
أعيننا حقيقة ما يدور بيننا !
- حازم ...
- المشاركة اسطورة ... الاثانية إله العالم . من أجل اثانية
مثاليتك ، أما كنت تفضلين ان اسمعي بمقتلي عن أن ترينني
هكذا ، وتسمعي ما سمعت ؟
- حازم !
- هل شاركني أحد تلك الايام التي لا شمس فيها
ولا خبز ؟ .. هل سجت معي ؟ .. هل عرفت معنى أن تنبجي
الماً ، وتبصقي رثتيك قطعاً متعفنة ؟ هل .. هل ...
لم أعد أفهم ، لا أستطيع . آخر ما رأيته وأنا أنطلق هاربة
أصابع يده التي يشير بها إليّ ...

وكانت متشنجة ، وبلا أظافر !
أركض ، أركض ، رغم اني واثقة من عجزه عن اللحاق
بي بعكازه ، وفقراته المحطمة !

* * *

شقتنا سحابة من ضجيج ودخان وهذيان ، تندفق على الدرج
الحشبي ، تضرب وجهي وأنا أفتح الباب .
- لماذا تأخرت هكذا يا مادو .

كل ما في الغرفة ينوس مع اهتزازات صوت « سليم »
المرتنحة . هذا رائع . كلهم ثمل ، ولا حاجة للتمثيل !
- تأخرت لأنني جئت الآن !

- أهلاً ... لم تسمعي المقطع الأخير الذي نظمته الآن من
قصيدتي ، « لأننا بلا مدينة » ... قالوا جميعاً انه كان رائعاً ...
وكانوا جميعاً رؤوساً تهتر . ترتجي على الوسائد وأكتاف
الحبيبات ، والطعام على المائدة لم يمس ، وكل طبق
مأساة ، استحضر صانعها خلال اعداده كل ما لديه من
ذكريات ...

نادر ، بصعوبة يتحرك نحو « البيك اب » . يبدو انه يريد
أن يقول شيئاً :

- كفى يا سليم ، دعنا نسمع النشيد الوطني !

يهذون ! أجل النشيد الوطني .

كمن يدفن طفلة الوليد ، بالحزن العميق الهادئ نفسه ، أراه
يودع الاسطوانة في الآلة ، ويعبث بأزرارها ...

لحظات ، ويبدأ النشيد الذي وقفنا اطفالاً في «الباحات»
نسمعه مع مطلع كل أسبوع . لحظات ، ويمد نادر يده بوحشية
ومرارة ، يعبث بأحد أزرار الآلة . يغير سرعة دوران الاسطوانة .
وهنا يستحيل النشيد مواء وزعيقاً وهذياناً ، جوقة «سيرك» أو
تناحر قطط مسعورة ...

ينفجر ضاحكاً صارخاً : اشربوا نخب نشيد وطننا !
النشيد ، مواء وزعيق ، جوقة سيرك ، يرفعون صوت
المذيع ، يشربون ضاحكين بمرارة مرعبة السقوط ، وتمزق
حقيقي لا تعبه شقراواتهم ، ويخطئه على انه مرح شرقي
خاص !

إلى الشارع أهرب !
أسمع وقع أقدامهم على الدرج ، وأعرف انهم تدفقوا
جميعاً خلفي ..

إلى بار «فرسان دون كيشوت» ..
ندخل سحابة من ضجيج ودخان وهذيان مجروح ، نصطف
على طول مائدة ، ونسقط فجأة في خندق من صمت . كل
منا يسقط في خندق منفرد ، نتوقف عن الحوار . البعض
يخاطبون أنفسهم لولا المائدة الواحدة لما حيا أحدنا الآخر ساعة
دخوله ...

لا أحس بأي شيء ...
منذ غادرت حازم وأنا لا أشعر بشيء أبداً . لا ألم ، لا فرح ،
لا دهشة ، لا توق ، حتى ولا برد !

بقعة من ضوء ، انزلق على الأشياء ...
إلى جانبنا على منضدة قريبة يجلس الطبيب . وعلى مقعد
ملاصق لمقعدته تجلس كلبته . وكلاهما يعب من الشراب . يسكب
لنفسه كأساً ولها كأساً ...

ووجهه الحجري الميت أحسه مألوفاً . إذا بقيت هنا ،
سيطالغني هذا الوجه في المرأة كل يوم !
هذا رائع إذا كنا حقاً ننسى ، إذا ظل هذا الموت الممتع
يغمر أعماقي .

يشربان بشراهة ، كلبته تفوقه ادماناً .
أحسنتي كبقية أهل المكان ، لا شيء يثير دهشتي أو
تساؤلي ،

حتى ولو نهض وقد تأبطت كلبته ذراعه ، وقدمها لي قائلاً
مدموزيل أنيتا ، أقدم لك أخت جارنا سام ..
حتى ولو خلعت الكلبة قفازاً من «الساتان» ، وصافحتني
قائلة : «تشرفنا يا مدموزيل» ، أو صفعني نائرة : « أرجو
أن تخفضي صوت الراديو ليلاً لأنه يزعجني ! » - لما أدهشني
شيء ...

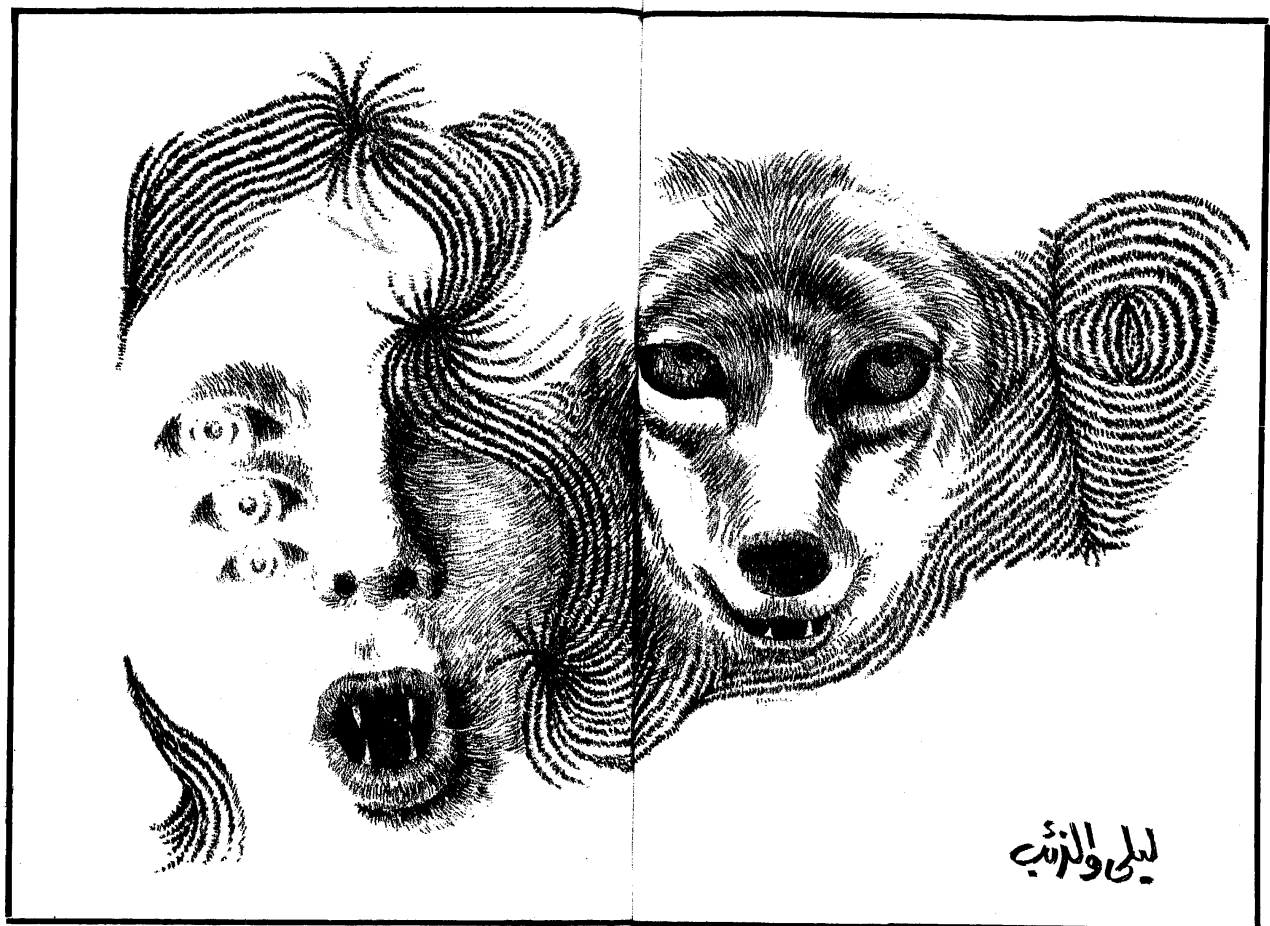
أظل بقعة من نور انزلق على الأشياء . كلمة العيد تضحكني .
مدينتي أحسها كذكرى حلم عتيق باهت في مخيلة رجل أعمال
مشغول لولا

لو لم التفت في تلك اللحظة .
لو لم أر الطبيب ، خلف الزجاجات الفارغة المكدسة على
طاولته ، يحمل كلبته بين ذراعيه ، يحتضنها . يضمها إلى صدره .
يدفن وجهه في رقبتها ، ويبيكي ، ويبيكي ، يتحدث إليها بلغة

لا أفهمها . ربما هي لغته في مدينته التي جاء منها ، وهي نحنو
عليه كما لا تفعل ممرضة في أية مستشفى هنا ، ويكي بمرارة
في صدرها ... وجسده ينتفض وجسدها يتجاوب لأحزانه ..
يهدهان . من خلال عينيه المغمضتين في وجهه المستكين اليها ينحدر
خيطان من الدموع ... أمسحهما عن وجهي !
وأنا أغادر المكان ، اسمع نادر يصرخ في سليم هادياً :
- أجل ! قد تشق البيتلز في هايد بارك ، وقد تطلتق مرغريت
زوجها من أجلك ، لكنك لن تكتب «لأنا بلا مدينة» !
يستقبلي برد الشارع . للمرة الأولى أفرح به ...

صفحات دليل الهاتف تتقلب بسرعة ...
بقعة ضوء ملهوفة أسقط بين صفحاتها ...
أول شركة طيران ادير رقمها .
أول طائرة إلى مدينتي ... لن أبقى هنا ... لن
وليكن ما يكون !

□ تُرجمت هذه القصة إلى الإيطالية والبولونية .



ليلى والزيب

خائفة

اني خائفة .

كل ما حولي يرتعد خوفاً .

السطور في مجلد الطب الكبير المفتوح أمامي ترتجف . عبثاً
أثبتت نظراتي على الحروف ، التي يختبئ بعضها خلف الآخر .
النور المسلط على مكتبتي يصاب باغماء أصفر ، أصفر ،
كأنياب سوف تثبت فجأة ، وتنقض عليّ من مكان ما ، لسبب
أجهله كما تجهله هي أيضاً .. اني خائفة (يا فراس ...
لو تدري) .

خائفة .

حتى الجمجمة الحسنة ، صديقتي الوحيدة فقدت مرحها .
بريق السخرية في فجوتي عينيها خبا .. مغارتان للرعب الداكن
أراهما أمامي ، وفكها الاسفل يرتجف . ربما في عنقها المقطوع
صرخة ميتة .. الصرخة في حنجرتي تنظفي في كوم رماد
صدئ .

والريح .

توقفت عن العويل . ربما اختبأت في أحد المخابر . حتى
المطر كفّ عن المطول .

كل شيء يحبس أنفاسه في ترقب متوتر هلع . خائفة ..
(يا فراس .. تراك كنت تدري ؟) ..

حتى موسيقى (البارتي) في قبو مسكننا الجامعي (البستاني
هول) صار فيها ايقاعاً مشحوناً بالانتظار . صار في تسارعها ،
وقرع طبولها ، تشنج يد معقوفة الاظافر ، تتحرك في الظلام ،
وتطبق على عنق ما .

خائفة (يا فراس ، أين يدك ؟) .. خائفة ، رائحة باردة
الزرقة تملأ عيني بأبحرتها .. تتدفق من أشباح شجر الصنوبر
خلف النافذة ... ربما كانت تتدفق من حديقة الجامعة الغابة ،
ربما كانت أنفاس المخلوقات السجينة في البناء الرابض في العتمة ،
المقابل لغرفتي في التل .. خائفة (يا فراس ، أين يدك ؟) ..
ربما لم تحمني من الخوف ، ربما كانت تشاركني خوفي ، لكنني
أحييتها) .

خائفة . قرع الطبول يتسارع . الضحكات التي تملو من
القبو تتحول إلى ما يشبه الصراخ .. إلى ما يشبه النباح .. الزرقة
تتكاثف .. أسنان الجمجمة تصطك بتواتر متسارع . رغم عويل
الموسيقى عادت الأصوات الرهيبة تتسرب من ذلك البناء الغامض
المخيف ، عاد النحيب المملوط الحزين ... (الليلة ، بعد أن
ينمن جميعاً سأظل وحيدة أنصت دون أن أجروء على غرس
سيخ في أذني ليتوقف كل شيء ، ما دام همسك منذ الليلة لم
يعد لي .. ربما يتوقف حينئذ كل شيء آخر إلا تلك الشكوى
المريرة الدامية .. ربما يسكن كل شيء إلا سيل الليالي

الحزينة الباردة والتي عادت تتدفق خائفة .. (يا فراس ..
أين يدك ، فالليل بارد وحزين ؟ ..) خائفة ...
(كان الليل حزينا وبارداً ، ونحن في طريقنا إلى « البستاني
هول » . مررنا بمبنى كلية الطب حيث أفضي أكثر ساعات
النهار . كان من الصعب أن أصدق أن خلف تلك الجدران
المتمة مقاعد خشبية بريئة نلتصق بها بهدوء ، ونوافذ تنسكب
منها أشعة شمس مضيئة .. في الليل يتغير وجه العالم ، وربما
يستعيد وجهه الحقيقي . أحسست بأشياء مرعبة تغلي داخل البناء .
الهياكل العظمية تتحرك وتتجه نحو النوافذ المغلقة . عبثاً تحاول
الهروب .. ربما يجلس بعضها في الزوايا ، لينتحب بصمت
وبراعة ، من أجل أشياء لا يدري إذا كان قد ارتكبها حقاً .

بحثت عن يدك في الظلمة . كانت كبيرة ودافئة كسقف
دار ، كأيدي الآباء جميعاً .. أردت أن أقول شيئاً ، رغم
حفنة الرماد الصدئة في حلقي .. ربما كنت ارتعد كطفلة يتيمة
خائفة لأنك سألتني : متى تلقيت آخر رسالة من البيت ؟ ..

– تلقيت آخر « حوالة » منذ أيام في موعدها المحدد ،
فسكرتير أمي ، في منتهى الدقة والحرص في كل شيء ! ...
على أية حال ، لا أتوقع منها رسالة قبل انقضاء فترة الاعياد :
الميلاد ، ورأس السنة ..

ورأيت بيتنا الكبير في المدينة المجاورة يغلي ... أمي مشغولة ،
مشغولة دائماً ... لا أدري كيف وجدت الوقت ذات يوم
لولادتي ، وربما أبقتني في جوفها شهراً إضافياً ربناً وجدت لي
في زحمة مشاريعها ومواعيدها وقتاً ، ولهذا فأنا مصابة أبداً

بضيق خائف من الحدران .. ربما أكره المدارس الداخلية لهذا السبب ...

أراها الآن بقامتها الرشيقة ، تقف بين دوامة من الخدم الذين يزنون المكان .. وجهها على صينية لها مفرش من الدانتيل والتنتاه ، وتحتها ثوب من الحرير .. من وقت إلى آخر ترسل من سيجارتها المغروزة في « بز » من العاج الثمين الحفر ، دخاناً شفافاً .. انها أبداً هكذا ، أنيقة وجميلة ، كما هي في صورها في الصحف .. أنيقة وجميلة كالصقيع النائي .. لا تتعب ، ولا تذبل ، كالزهور الاصطناعية .. كأهدابها الاصطناعية .. كالتماثيل الجميلة القد ، لا تسمن ولا تنحف ولا تهتدل أهداؤها .. وكلما جاءت الخادمة التي أرضعتني لتزورني متحبة ، كنت أتمنى أن أتقياً نفسي . وبعد أن تذهب ، أتجسس على أمي في غرفة نومها ، لأنني أشك في ان لها جسداً كبقية (المرضعات) وفي انها التوأم الآخر للتمثال المرمرى الحميل في الصالة الكبيرة .
- ليلي .. أين أنت ؟

أيقظني صوتك . أعادني من غابة إلى غابة .. وتلفت . كنا ما نزال نهبط الدرج الذي يمتد على طول التلة الكبيرة ، وعلى جانبيه تقع أبنية الجامعة المختلفة ، وفي أسفله (البستاني هول) .. اذكر اني أردت أن أقول شيئاً ، حينما بدأ نحيب ممطوط حزين متقطع ، ينطلق من بين القضبان الحديدية والشبك على نوافذ البناء الذي نمر به .. ثم تلاحق النحيب وتكاثرت ، وتعالى ، صار شبيهاً بعواء مئات من الرجال ، المنهكين تعذيباً ، والذين تسيل الدماء من ألسنتهم المقطعة ..
أحسست بك تشد على يدي ، ويدك تكبر وتكبر ، وأنا

- صغيرة ووحيدة أنكوم في ركنها ، وأطمر رأسي تحت أحد
أظافرها ، هرباً من الأصوات الفظيعة ..
- ليلي .. ما هذه الأصوات ؟.. ما هذا المبنى المواجه
لبنايتكم الداخلي ؟..
- ان المبنى الداخلي الآخر !..
- وفيه فتيات غريبات ؟.. ما هذا العويل الحيواني ؟
- انهن أكثر وعياً وحساسية لذا فهن عاجزات عن النوم ،
ويعبرن بصدق عن مشاعرهن ..
- ليلي ...
قالها عاتياً ،
- لم أكن أمزح ولكن يبدو انك تريد تقريراً باللغة العلمية
عن هذا المكان ..
- هذا أقل ما ينتظر من تلميذة طب ..
- هذا هو المخبر .. فيه مجموعة من الأرناب والقطط والفئران
والحيوانات الأخرى ...
- لم أسمع في حياتي صوتاً كهذا ..
- في النهار أشارك في تخديرها ، وصنع التجاويف والشقوق
في أجسادها المتشنجة . تظل صامتة لا تشكو . وأحياناً ألمح في
عيونها الصامتة دهشة خالفة لأنها لا تستطيع أن تفهم ، لماذا
يحدث هذا كله .. وفي الليل ، ربما ينحسر التخدير ، ولا تبقى
إلا مرارة السجن ، والجراح المسمومة ، والخوف ، الخوف
الوحش ..
- هذا فظيخ ..
- أبدأ ، أحسدها . فهي على الأقل ما تزال قادرة على

الانين والعواء والعيول .. ما زالت تفترض ان هناك من يمكن
أن يسمع ، أو يفهم ، أو يمد يده ..

– هذا فظيع .. تتحدثين عنها كأنك واحدة منها .. كأنك
لست من الفريق ، الذي يشارك في زرع الجرائم والعذاب في
حناجرها وفقراتها ..

وازدَدْتُ تكوماً في كفك الكبيرة ، ولم أقل لك انك ربما
ستفعل بي الشيء نفسه دون أن تدري .. مددت يدي أتحسس
حنجرتي وفقراتي . قفز شيء بين الاشجار فكادت أصرخ .
اكتشفت انه (مدجج) . انخبت احمله بيننا استسلم مرتعداً
لقبلاتي . انه خائف . لم يخطر لي أن أتساءل من قبل أين ينام ؟
قدرتك على أن لا تفقد مرحك أدهشتني دائماً . سألتني مازحاً :
من الغريم الحديدية ؟ ..

– انه مدجج ، القط الذي أتولى اطعامه .. انه يعيش في
الجامعة مثلنا ، لكنه أكثر حظاً لأنه غير مجبر على النوم في
(البستاني هول) .. انه وحيد دائماً . لا ريب في ان أمه سيده
مجتمع خالدة الجمال ..

– مدجج ؟ .. هذا اسم غريب .. لماذا اخترته ؟ ..

– سئمت الحديث بالانكليزية طوال الوقت لأن أكثر الزميلات
أجنبيات . ان لفظ اسمه يتطلب منهن جهداً لم نبذله في تعلم
لغتهن بأكملها .. اسمه انتقامي منهن . أمام الباب رميت
(بمدجج) إلى عتمة الغابة وأنا أحسده .

– سأتصل بك هاتفياً بعد نصف ساعة لأقول لك مرحباً ...
مرحباً ..

مرحباً ... أهلاً ... فراس ... فراس ... أي شيء ...

كان المهم أن أسمع صوتك في الليل بعد أن تغلق الابواب ،
كان جرعتي المخدرة ، كان وحده يحمي ، يعيدني فتاة سوية
قادرة على النوم كأية فتاة في شارعنا الحزين الذي يمتد على
جانبيه شريط من الغرف ، ولكل باب رقم ، واسمي في بيتي
هذا : الرقم ٢٠٢ !.. كان وحده ، الصوت العميق ، الدافئ ،
كلين أم امتص للتو ، المقعم بالحنان ، كان وحده ، يطغى
على أصوات جيراننا في البناء الداخلي الآخر المرعب ، وكان
وحده يحولني من الرقم ٢٠٢ في شارع اللواتي أمهاتهن سيدات
مجتمع ، إلى ليلي التي تفرد لها ضفيريها قبل أن تنام وتمشط شعرها
بأصابعك وترسل الغطاء عليها ثم تقبلها في جبينها وتغلق الباب
بهدوء ...

- فراس .. تصبح على خير ..

- ليلي .. حبيبي .. اذهبي ونامي ...

وعلى رؤوس أصابعي العارية أتسلل على الدرج عائدة إلى
غرفتي . ولا أشعر بأي حقد حينما أصل إلى الممشى ، شارع
الغرف المتشابهة ، وأرى أضواءها كلها مطفأة ، وأنفاس النوم
الكسولة ، تنسكب من شقوق الأبواب بتكاسل أجرة ثقيلة .
وأنام ..

ولا أحلم بذلك الحلم الزهيب الذي لاحقني طيلة حياتي ..
حلم الخوف .. الخوف .. خوف اليقظة .. الخوف .. إنني
خائفة ..)

خائفة .. الحفارة تعمل في صدري .. التحيب يتعالى ..
الجمجمة لم تعد صديقة ... الرعب يتدفق من عينيها ... في
القبو وليمة وحشية للصراخ ... يجب أن أمسك يدا ما

(يا فراس .. أين يدك ؟ .. بحجر كبير أهشمها وأبكي لأغسل
دمها) ..

التفت إلى شريكتي الباكستانية في الغرفة أنها ليست موجودة
إلا حينما ترعجني .. أنها نائمة .. شيء لا يصدق أنها تستطيع
ان تنام هكذا ... ان تفتح فمها بهذه البلاهة ، أن يعلو صدرها
ويهبط بهذا الانتظام ... شيء لا يصدق أنها تسجن نفسها
هكذا ، تسجن نفسها وتسخر من (البارتي) والشبان ، وتصلي
من أجلي لأنها تجدني طفلة ضالة ، ثم تأوي إلى فراشها تقرأ
أحد الكتب الجنسية البذيئة ، التي جلدتها بغلاف كتب عليه
« الاخلاق في الحياة الدنيا والآخرة » .. انها نائمة ، والعالم
كله ينتزف رعباً ... ربما كانت ميتة .. ربما كانت ميتة ...
ربما ماتت خوفاً دون أن أدري ... ربما ماتت لذة وهي
تقرأ وتقرأ في كتبها .. ربما ماتت تُقى أثناء صلاتها قبل
النوم ..

أريد أن أنهض وأهزها ، لا أستطيع أن أتحرك . أنا يابسة ،
يابسة . زهرة جففت بين دفتي مجلد الطب الكبير أمامي .. أنا
ضائعة .. أريد أن أصرخ (زييدة .. هل أنت ميتة) لا أستطيع
لا أستطيع شيئاً .. كما في الكوايس الفظيعة .. الحفارة في
صدري .. يد مجهولة معقوفة الأظافر تدفع بها .. الدم والحصى
يتناثر على وجهي .. لولا الرماد في حلقي لصرخت .. (يا
فراس .. هل كنت تفهم معنى ان نفترق) خائفة .. ببطء ..
ببطء مخيف يرتجف مقبض الباب . يتحرك .. تعلو الصرخات ..
يفتح الباب .. تتدفق موسيقى الوليمة في القبور ... مَنْ من من
يمكن أن يأتي الآن ؟ .. مَنْ صاحب اليد ذات الأظافر المعقوفة ؟

تدخل فتاة أظافرها ليست معقوفة .
- ليلي .. كفاك دراسة .. كلهم يسأل عنك ، تعالي قليلاً ،
فالحفلة قد شارفت على النهاية على أية حال ...
كان من الصعب أن أجيبها بالانكليزية ، وحتى بالعربية .
أحسست باللغة شيء مضحك وسخيف ، والحديث الوحيد
الحقيقي هو انتخاب سجناء البناء الداخلي الاخر .. حديث من
طرف واحد . الحوار اكلوبة .. الالتصاق وحده هو الحوار
الحقيقي .. الانسكاب .. ان انسكب من أمي .. أن ينسكب
لبنها في جوفي .. أن ينسكب فراس في ارتشافي ..
ولكني خائفة .. فلأهبط قليلاً .

الطرب ما يزال يهزها .. تقف وتحرك قدميها مع الالخان
المتوترة من القبو .

بينما أغلق ازرار ثوب بسيط ينفد صبرها .. وبما ما يزال
صديقها واقفاً في الحلبة وفاتحاً ذراعيه بانتظارها كما تركته .
قالت : « الحقني بي بسرعة » .. تخرج .. ألحق بها بعد
دقائق .

أهبط الدرج إلى القبو . أمرت بالماتف . أمسك بساعته وأدير
أرقامك كالمخدرة .. وأسمع صوتك مشحوناً بالنعاس والتأفف ..
آلو .

(يا فراس كيف تستطيع أن تنام الليلة .. الليلة وقد عدت
ذئباً وحيداً ، وخلفتني ليلي بلا جزار) ..

بكلتا يدي أقبض على الساعة ، وبثقلي كله أشدها واقطع
الشريط الاسود .. الجسر الاكلوبة للالتصاق الاكلوبة .. غداً
سأكون المتهمه الوحيدة .. فأنا كما يعرف الجميع شريرة ..

الشريرة الوحيدة .. كيف يمكن لامرأة رقيقة وراقية أن تنجب فتاة شرسة هكذا ..

على باب القبو أقف .. عبثاً أنتمي إلى عالمهم .. الاضواء لطفنها بالورق الملون وامتزج الأحمر القاني بالأزرق الخساف بأخضر الغابات المسود .. وعلى الجدران الاوراق المقصوصة .. وعلى الرؤوس الطراير ، والفئات الملونة لم تُنفص كلها عن الوجوه ، فالتصقت بالعرق ، والضجيج ، وزملاء الدراسة يلعبون أدوارهم الحقيقية ، والضحك ، وقرع الطبول ، والرقص والشعر المتطاير ، والريح في الخارج خائفة ، واليد المجهولة ذات الأظافر المعقوفة تتخبط في الفضاء بحثاً عن صدر تزج بالحفارة فيه ، والحفارة في صدري ، والمخلوقات السجينة في البناء الآخر رغم كل شيء أسمعها تلهث في أذني (يا فراس ... كان من الصعب أن تفهم ، وإلا لما استطعت أن تنام) ، والثياب تتطاير ، وأنا أزداد التصاقاً بالباب ، بحاجة إلى أن التصق بشيء ما .. الوجوه تدور أمامي ، تدور ، تدور ، تقفز ، تصرخ ، تهذي ، الموسيقى تعول ، الطبل الطبل ، فجأة أرى الاقدام عارية ، الثياب مخيفة الالوان ، الطبل وحده ضرباته وحشية متلاحقة ، القبو المزين غابة في الليل ، والنار ، ووليمة وعلى الوجوه أصباغ مخيفة ، والعويل ، والبناء ان صاروا بناء واحداً ، وجوقة التحيب هناك ، هنا ، والسماء لوحة فولاذية ليس عليها حرف واحد ، ثم كرة صغيرة ثم شحنات مجهولة تتدقق منها ، ويسري وعي مبهم بخطر فظيح ، الكل يتلفت حوله ، والخوف ، والرقص الوحشي ، وعلينا أن نرفع ضحية ما بطريقة ما لنهرب من مصير ندفع اليه ، لنهرب من تعذيب أحدنا

للآخِر . فقدنا القدرة على المراوغة ، وفي الاعلى اليد الكبيرة
ذات الأظافر المعقوفة تهيمن ، نطيع ونتوقف عن انتحال
الاسباب وتسخير المنطق ، والقرع الفطيع ، والرعب ،
والهستيريا من الضربات العارية على الأرض ، أين دبائيسي .
ليخرج كل دماه .. أين الدبائيس خائفة .. خائفة ..
وأركض .. أركض .. أنا في الغابة خائفة ، أنا في الغابة ..
يجب أن أهرب .. أن أهرب .. ان أهرب ، يجب أن يتوقف
كل شيء بطريقة ما ، أهرب مما لا أدريه إلى ما لا يوجد ..
ماذا ؟ ماذا ؟ كيف ؟ لا ! ..

ربما بعنف أغلقت باب غرفتي ورائي . زبيدة شريكتي
(بالقرعة) في الغرفة تقفز بهلع من نومها .. النور الباهت على
مكثتي ما يزال مضاء .. تصرخ رعباً وهي تنظر في وجهي ،
ثم في مشهد الدمى المشنوقة المتدلّية من الجدار خلف المكتبة ..
- هل عدت إلى هذه الاعمال الفظيعة .. اقدم شكوى
غداً ضدك وسأطلب نقلي من هذا الجحيم الوثني .. لا أستطيع
أن أعيش في غرفة واحدة مع شريرة . انظري إلى وجهك في
المرآة ...

ونظرت إلى المرآة ولم أرَ فيها شيئاً .. على الجدار يتأرجح
شريط الدمى المشنوقة في الريح .. دمية لامرأة جميلة وجهها
على صينية من الدانتيل والتنتاه وثوبها الطويل من الحرير ، وفي
فمها (بز) عاجي صغير ، وعود يشبه سيجارة .. وعلى صدرها
عكقتُ ورقة بيضاء ، صغيرة ، برقية ، بعشرات الدبائيس غرزتها
وثبتها .. برقية تلقيتها بعد الاعياد ..

... انفجرت ضاحكة أمام الموظف المشدوه .. برقية ؟ .. برقية

من والدتي مع الحوالة النقدية ؟.. قلت ربما كانت برقية تهينة بعيد ميلادي . بعيد خلاص وشاقتها منذ عشرين عاماً من التشويه الذي أحدثته لأشهر ...

وقرأت : « تم الطلاق بيني وبين والدك ... اختاري أهدنا » ..

وانفجرت أضحك .. نكتة حلوة سأرويها لصديقتي الجمجمة ونحن نفرس الدبابيس ونضحك ..

أعطيت البرقية للموظف المشدوه وطلبت منه قراءتها .. كنت بحاجة لأن يشاركني إنسان ما ضحكي . يشاركني .. يبدو أنه لم يفهم النكتة .. سألي بلطف مشفق إذا كنت بخير ..

في طريقي إلى الجانب الآخر من التل لم أمتلك نفسي من الضحك .. رغم نظرات زبائن (فيصل) و(انكل سام) المدهوشة .. أن أختار أحدهما !! .. كيف أختار إذا كنت لا أعرف عنهما إلا أخبارهما في الصحف ؟.. ربما كانت الآن تجري حصر الامتعة استعداداً ليقاسها فيا بينهما ، وحصر الفواتير لتقسيم الثروة ، وتذكّراني لما وجدنا فواتير المرخصة والمدارس الداخلية ..

تطلب مني أن أختار أحدهما !..

خمسة عشر عاماً وأنا وحيدة ، أتسول يداً كبيرة دافئة كسقف دار . خمسة عشر عاماً من جحيم إلى جحيم ، وأنا دوماً النعجة السوداء الشاردة .. خمسة عشر عاماً وليلي في الغابة بحثاً عن الذئب كي يؤنس وحدتها .. خمسة عشر عاماً وأنا أينما حللت الشريرة الشرسة .

- ان اختار أحدهما !.. كأن كان لي أحدهما كي اختار ..
 وطويت البرقية .. وفتحت مفكرتي وأنا أغادر باب الجامعة
 وأسير في الجانب الثاني من التل ..
 واتجهت إلى مخزن « معتوق » . اخترته لا لمنظر الحلويات في
 واجهته ولكن لأن اسمه « معتوق » .. اسم عربي كاسم « مدجج »
 فقد سئمت الحديث الدائم باللغة الأخرى .. خلف الموظف كان
 وجهي في مرآة .
 - أريد كعكة لعيد ميلاد الحمجمة .
 - ماذا ؟ ..
 - قلت لك لعيد ميلادي .. أريدها كهذه الكعكة ..
 - حاضر . عنوان البيت ؟
 البيت ! كلمة مرعبة ...
 - بيتي شارع طويل على جانبيه شريط من الغرف
 المتشابهة و....
 - عفواً .. لم أفهم اسم الشارع ..
 - المصيبة .. رقم ...
 اعطيته عنوان دارك يا فراس ..
 - والاسم ؟
 - رقم ٢٠٢ ..
 - عفواً لمقاطعتك ، ولكن لا حاجة لرقم الهاتف . الاسم
 فقط ..
 - بالضبط ... ٢٠٢
 - لم أسمع ...
 - فراس ! .. المهندس فراس هاشم ..

وخرجت هاربة . كان من الصعب أن أفسر له ان بنات سيدات المجتمع صاحبات الجمال الخالد (بلا اسماء وبلا عناوين) ... زبيدة ما تزال تصرخ . في عينيها خوف تافه لثيم . الخوف ، لو تعرف ما الخوف (يا فراس .. أحقاً انك نائم ؟ .. هل استطعت أن تنام مثلها ؟) ..

– انزلي هذه الدمى .. الغرفة مليئة بالأرواح الشريرة .
تشاءب من جديد .

– لم أتم ثانية واحدة منذ جئت إلى هذه الغرفة المشؤومة .
تمد يدها إلى المنضدة ..

– سأقرأ بعض الادعية لأنام .

تلتقط كتابها الجنسي ذا الغلاف « أعمدة الحكمة السبعة » وتسوي غطاء فراشها وسجادة الصلاة التي تحب أن تمدها فوق الأغطية .. تشعل النور الصغير فوق رأسها .. فك الجمجمة يتوقف لحظة عن الارتعاد .. تصوب إلى زبيدة من مغارتي عينيها أشعة ساء قاسية .. ثم يعاود وجهها ذلك التعبير الساخر الحلو ..

بحنان أتحسس عظامها ..

– يا جمجمتي الحسناء .. لو كنت دافئة فقط ..

تصرخ زبيدة : كفتي عن مخاطبة الجمجمة ، هذه وسيلة ايضاح لدراستك وليست صديقة ثالثة في الغرفة .. والملي هذه الدمى ...

الدمية الثانية .. لرجل بلا وجه ، أشيب الشعر منتفخ الجيب .. كانت جيوب أبي منتفخة دائماً ، ولم يكن

فيها قط حلوى لي .. في درجي الحاص أدفنها من جديد ..

وفي الدمية الثالثة ، دميتك ، أدفن دبوساً جديداً ..
أعض على شفتي لأمص من شفتي دمك ..
قد أبكي إذا أملك ، فاستريح ..
افترقنا ..

لم يحدث شيء .. أبداً كنت خائفة ، أبداً كانت الغابة موحشة والليل طويلاً ، وأنا سجينتي انمي إلى قافلة الاحتجاج الدامي في البناء الداخلي الآخر .. (يا فراس .. لا ريب في انك لا تدري .. لا ريب في ذلك فقد كنت أبداً كبيراً وكراماً .. وفي لحظات الغروب كنت أحب أن أراك ، لأن ظلك على الرمل كان طويلاً طويلاً أركض وأركض لادرك الرأس فيه .. وتغيب الشمس ويخفي قبل أن أصل إلى نهايته العملاقة .. انك متعب ، ولا تدري ، ولهذا أنت نائم .. آسفة لأنني أيقظتك) ..

تعود الحفارة إلى صدري .. لا .. لست آسفة لست بأسفة كان عليك أن تدري .. لقد سمعت الاصوات ذات ليلة .. خذ ، هذا دبوس آخر في دميتك ...

ربما أبكي إذا استطعت أن أملك ، فاستريح ! ..
(.. تصرخ الراهبة في وجهي : ابكي .. كوني طفلة طيبة تصلي وتكتب الرسائل لأمها .. ابكي فالفتيات الشريرات فقط لا يكين ولا يستغفرن ..

وكنت أبكي بمرارة بلا صوت ولا دموع .. كان من الصعب أن أعري أمامها .. كنت أحس أنها بلا قلب ، وانني بحاجة

للبياء لأنني خائفة ، لا لأنني طامعة في قطعة من الحلوى كبقية
الفتيات .

– سأعاقبك ولن أسامحك حتى تبكين .. اديري وجهك
للحائط وقفي على ساق واحدة .

وتحجرت !.. كسرة خبز جافة للعشاء وكأس ماء . لم آكل
قطعة الخبز لكنني وأنا أشرب الماء تذكرت حتماً فظيماً رأيت
ولا أدري كيف أطبقت بأسناني على الكأس ..
وعرفت طعم الزجاج المسحوق بالاسنان ، الممزوج بدم مالح
وحار ..)

كفّت الموسيقى . ربما تعبوا . اسمع وقع خطى كثيرة
على الدرج . مارسن تخديرهنّ وودعن الفرسان . وعدن إلى
جحورهن .. وسوف ينمن بسلام كما في كل ليلة ، ولن
يسمعن الاصوات المخيفة .. زبيدة تطفئ النور الصغير فوق
رأسها . ترمي بالكتاب من يدها لتنام من جديد وهي
تتمتم : لم أعرف طعم النوم منذ جئت إلى هذه الغرفة
المشؤومة ..

أنا من جديد مسمرة خلف منضدتي .

خائفة ، رغم أصوات الأبواب التي تفتح وتغلق وانسكاب
المياه وصوت بقايا النشوة الضاحكة .. الضحك . يضحكن رغم
انتحاب مخلوقات البناء الآخر المقابل ، ويحلمن .. رغم كابوس
ليلي في الغرفة المجاورة .. الجوع وحده هو الذي يجمعنا إلى
مائدة واحدة . . لا جسر لا خيط لا حوار .. (يا فراس ..
لا جسر لا خيط لا حوار ؟ .. ويدك ؟ سقف سحابة ؟ يا
فراس .. لا يهني كيف ولماذا ، كل ما أعرفه هو انني لن

أتكوم في صدرك يا ذئبي الحنون ، واني أحببتك حقاً ذات يوم .. ولكنك لن تدري ولم تدر رغم كل ما قلته وما كنت أود أن أقوله .. فالحوار ميت ما دامت الكلمات في عالمك تعني شيئاً آخر عما تعنيه في عالمي .. وكل ما قيل كان للرياح لأن خط الهاتف كان مقطوعاً دائماً .. اليد المجهولة ذات الأظافر المعقوفة قطعته .. كان مقطوعاً منذ البداية . لم أقطعه الليلة أنا .. غداً كيف أفسر لهم انني لست شريرة وان شريط الهاتف كان مقطوعاً دائماً دائماً ...

ومع ذلك ، كان يكفي أن أحس انك في الطرف الآخر من الجهاز الاكثوية ، وانك على الاقل تحاول أن تكون معي ، وأنفاسك اللاهثة جسر نور مرتجف) ..

بدأ ضجيجهن يخفض . زبيدة غارقة في النوم من جديد . الجمجمة صامتة وحزينة . الاصوات هدأت برهة لكنني أعرف انها ستعود . عدت وحدي معك .. عن الجدار أتناول ديمتك . أنتزع الدبايس منها واحداً بعد الآخر .. كم أحببتك ... (يا فراس .. أعرف انك أحببتني كما لم تحب امرأة في حياتك .. أعرف انك أيضاً وحيد وكثير ، وان شفقتك ما تزالان تجوسان عنقي بخنائها العجيب ، لكنهما تقولان كما أقول : افرقنا .. لم يحدث شيء) ..

بلى .. حدث شيء فظيع ، وهو ان ما حدث لن يتكرر ربما طيلة العمر .. واننا افرقنا بلا مبرر ، ولم يكن هنالك أي مهرب من ذلك .. والحفارة لم تحتر صدري بنفسها ، هنالك طرف ثالث في كل ما كان .. نتصرف كأننا وحدنا كل شيء ، وننسى اليد المجهولة ذات الأظافر المعقوفة ، ربما لأننا

لا ندري عنها شيئاً ، لكننا نعرف انها هناك ما دام ذلك كله يحدث ، ولا يتبقى لنا إلا الخوف ، وعناقنا احباء خسائف يخائف .. (يا فراس .. أين أنت أخفيك في صدري من خوفاً) .
لن أقبل دميته ، أخشى ان لا أبكي فانفجر .. يجب أن أبكي مرة ما ..

(- ابك . قولي أي شيء ..)

ظللت صامته . كنت أعرف ان ذلك سوف يحدث . كنت أعرف ان لا مفر من أن يحدث . ظللت جامدة . تمنيت شيئاً واحداً : أن أروي لك ذلك الحلم الذي يلزمي منذ طفولتي ، منذ عرفت طعم الزجاج المسحوق بالدم .
أنا طفلة أركض باكية في غابة مخيفة الأصوات . جائعة . جائعة لأنني خائفة . لأنني هربت من كوخ جدتي التي تتمدد دائماً في فراش لا تنهض منه ولا يبدو منها سوى رأسها عائماً فوق الدانتيل والتنتناه ، وبدها التي تمسك (بز) سيجارة من العاج المنقوش وتدخن ، أو تمدها للرجال الداخلين والخارجين باستمرار فينحنون لتقبيلها ...

فقد حدث أن أحسست بالجوع لأنني أحسست بالخوف .. ولما دببت على فراشها بحثاً عن صدرها لأرضع بنفسني بعد ان شاهدت إحدى الخاديات ترضع طفلها دفعتني بقسوة لأنها مشغولة ولا وقت لديها .

هجمت عليها بأنيابي الصغيرة ، ومزقت ثوبها لأنني جائعة ، لأنني خائفة ، لأنني سأموت رعباً إذا لم أرضع .. ولما طردتني من الغرفة هربت إلى الغابة بحثاً عن الذئب لأرضع .. كنت أعرف أنه هناك ، ولم أكن خائفة منه كبقية الأطفال .. كنت

أعرف انه يجهم بطريقته الخاصة ، وكنت أعرف انه ليس شريراً ، وانه ربما سيروي لي قصته .. ويتهي الحلم دائماً وأنا في الغابة أبحث بلهفة عن الذئب .. تمنيت أن أقول اني لست آسفة على شيء ولست نادمة وانني أفيض امتناناً ومحبة .. وانني إذا رويت قصة ليلي والذئب لأولادي فسأخبرهم بأنه كان شاباً رقيقاً شفاف العينين ، في احتضانه الشرس لليلي تخدير يشبه الحنان ، يشبه اغتصاب موت عنيف كاليقظة وكالفرح .. وانه لم يعذب ليلي ، وانه أراد أن يقبلها ، لكن أسنانه ركبت بطريقة جعلت من قبلته عضمة مميتة .. وانه حاول في البداية أن ينسيها خوفها بعناقه الدافئ المنعش ، فلما ابتسمت بنشوة طفل فرغ للتو من امتصاص ثدي أمه ، تمنى أن يمنحها كل ما يملك ..

لما سرى سمه في جسدها لم يستطع أن يصدق .. كان يظن انه يمنحها عسلاً ورحيقاً .. مَنْ شوّهه هكذا دون أن يدري ؟.. فصار حينها يظن انه يبتسم ، يستحيل مرعباً مخيفاً كأصوات الغابة ؟؟.. كأنه صورة حسية للأصوات البائسة ..

وحينها قتل الخوف ليلي لم يدرك أحد أن ليلي كانت هي الذئب لأنها أتعبته بحبه لها ، وجعلته يدرك كم هو عاجز وضعيف ووحيد .

ومن يومها انطلق الذئب في الغابة بحثاً عن يد مجهولة لها أظافر معقوفة ..

أردت أن أقول لك هذا كله .. لتعرف لماذا لم أبك ولم أناقش ، ولماذا كنت أعرف أن شيئاً ما سوف يحدث ..

عدت تهمس بقسوة تقسرها عن الانسكاب في ارتجاف
صوتك الخزين : ليلي .. قولي شيئاً .. ما رأيك ؟ .. وكان
يقف خلفك أحد عمالك ويده الحفارة الكهربائية . الصق نابها
الذي يدور بوحشية على صدر الصخر وبدأ يأكلها والغبار الصخري
يتطاير .. كنت تقول : ليلي .. يجب أن تفهمي اني .. وضاع
صوتك في ضجيج ناب الحفارة الذي يدور بوحشية وينغرس
شيئاً فشيئاً في الصخر ...

ربما لم يضع تماماً فقد ظلت تحرك شفطيك وتشير بيديك ،
لكني لم أعد أسمع شيئاً .. لمحت لسانك يتحرك في فمك ،
ثم لم أعد أرى سوى لسانك ، ثم أحسستني عارية ممددة على
الصخر في الغابة ولسانك حفارة تعمل في صدري .. فولاذ
لا حدّ لوحشية دورانه وتمزيقه .. الحفارة في صدري . عاجزة
عن الفهم . عن المناقشة .. الأشياء أقسى من أن تكون موضوع
بحث منطقي ... أردت أن أهرب . لم أستطع . على وجهي
يتطاير الحصى من صدري .. كفى .. صمتت الحفارة ..
اقرب العامل منك ليسألك عن شيء ما .. سمعته يُخاطبك :
سيد فراس . فذكرت اسمك .. فراس . المهندس فراس ..
ذئبي الغالي .. التفت اليه تناقشه باهتمام كبير . لم أسمع صوتك.
لم أعد أسمع شيئاً .. أغمي على الاصوات .. ربما سرت
طويلاً في شوارع المدينة التي تصادف اني أعيش فيها ...
لم أكن حزينة ولا فرحة ولا متعبة ولا مدهوشة .

افترقنا ..

لم يحدث شيء .

كنت خائفة فقط كما كنت أبدأ .. الخوف القديم التوأم
نفسه ...
توقفت عند أول بائع عصير فقد كان فمي مرّاً كما لم
يكن أبدأ .
كان كل ما أعرفه هو انني رضعت في الغابة نباتاً مر
السموم .
ولا أذكر كيف ومتى .

كنت أتأمل وجه بائع العصير وأحاول أن أذكر أين
ومتى رأيته ... كان مألوفاً لديّ إلى حدٍ لا يُصدق ..
ومحبباً ..

مرة قلت لي : لا أطمئن اليك يا ليلي .. تتصرفين
كالاطفال ... ردود فعلك كالأطفال .. تحين بسرعة وتنسين
بسرعة ، ولا تعرفين في بعض اللحظات معنى ما تحسّين به ..
وظللت أتأمل وجه بائع العصير وشاربيه .. أين ؟ أين ؟ ..
ثم تذكرت انه يشبه وجه قطي مدجج . لو الصق وجهه على
جسد رجل لكانت الحصىلة هكذا .. لذا تناولت كأس العصير
منه وقلت : شكراً يا مدجج .. ضحك بدهشة الققطط واهتز
شارباه . وهنا كدت أتأكد من انه مدجج نفسه وأردت أن
أسأله إن كان سيخلع هذا الحسد المضحك ويعود إلى الحديقة
مساء وقت العشاء ، وإذا كان يريد مني اليوم أن أسرق له
فخذ دجاج من (الكافيتريا) أم ان لديه فتراناً كافية .. لكن
رجلاً مرّاً بنا في تلك اللحظة ، وقد حمل بين يديه بعناية
لفافة صغيرة .. تتمم بائع العصير الذي لم يعد يشبه مدجج :
إنا لله وإنا اليه راجعون .. جفّ حليب زوجته من التعب والفقر ،

ومات طفلهما جوعاً؟! ..

وهنا فقط لاحظت ان ثيابه رثة وقذرة ، وانه يحمل جثة
طفل ملفوف بشرشف ممزق .. وفي رأسه المنكس انكسار
لا حد له .. ذلّ غريب في خطواته المتثاقلة ، ذلّ إنسان
مقسور على اداء دور لا يدري كيف ولماذا زج به .. شيء
ما في المشهد أعادني أمامك .. عدت أسمع صوتك : إبكي ...
ناقشي ... قولي شيئاً ... عدت أسمع حديثك الضائع في ازيز
الحفارة . عادت الحفارة . لسانك . الحفارة على صدري من
جديد . كلماتك لا أسمعها لكنني أشم الكارثة بالحاسة نفسها
التي يدرك بها الاطفال ان عزيزاً ما في الدار مات دون أن
يفهموا معنى ما يدور . الحفارة بوحشية تدور ، بوحشية
تنفوس في صدري . أحتق . أعجز عن الصراخ ، تزداد
اكلاً لأعصابي . هذه المرة أحسها تقسر على الانغراس في
صدري . اليد المجهولة ذات الاظافر تدفع بها . تقسرها ..
هذه المرة أحس بانكسار لا حد له في رأسها الفولاذي .. بذل
عجيب في قسوتها ، ذلّ آلة مجبرة على اداء دور لا تدري
كيف ولماذا زج بها فيه .. أحسست برغبة في أن أتحدى
اليد المجهولة .. في أن أشدّ الحفارة إلى صدري ، ازداد
التصاقاً بها .. أحسست اني احبك .. انك أيضاً خائف مثلي ،
ربما كنت أكثر خوفاً ، لكنك كالكبار جميعاً ، وكالذئاب ،
ترفض أن تعترف بذلك كله . أحسست ان وجهي بدأ يتجمد ،
وظهري ينحني ، وأسناني تتساقط في فمي ، وأنفاسي تضيق ،
والرماد الصديء في حلقي يتكاثر ، وانني عجوز عجوز ،
وسيرتاع بائع العصير لو نظر إليّ ، فرميت بالكأس أمامه ،

وتلمظت بطعم الزجاج المسحوق في فمي المهترىء ، وغمرني
حزن كبير كبير .. حزن أشدّ قسوة من الخوف ومن
الغربة ..

حزنت حزناً طفلاً عجزاً ليس فيه من رياء حزن الكبار
والذئاب ومكابرتهم ..
دون أن أدري لماذا وكيف سرت خلف الرجل في جنازة
الطفل الذي لم يرضع ..
سرت طويلاً ، ويداي مشدودتان أمامي ، مثقلتان بشبح
جثة لا أدري كيف أدفنها ..

نظرات المارة لا تهمني .. لو سمعوا نحيب سجناء المبنى
الآخر لساروا جميعاً خلفي .. سرت طويلاً .. لا أدري كيف
أدفنها) .

والآن .. لا أدري كيف أبكيها .. لا شيء يبكيها .
صمت عجيب . كل شيء صامت وجامد . الخوف متصلب
خوفاً .. زبيدة نائمة .. اني خائفة . ربما كانت ميتة .
الجمجمة عادت مجموعة جامدة من العظام المتقرزة ، لأن
الديدان ساحت عليها زمناً طويلاً قبل أن تدرك انها فرغت تماماً
ولم يبق فيها ما يؤكل ..
عبثاً أحاول أن أقرأ في كتابي المفتوح . ماتت الحروف واستحالت
جثثاً ولم تعد تعبر عن أي شيء ..
الاشجار ماتت خلف النافذة . لا حركة . لا صوت سقوط
ثمرة على الأرض .

سكان المبنى المقابل توقفوا تماماً عن الأنين . استحال المبنى
قلعة تعذيب مات أهلها منذ زمن بعيد .. حتى الاعشاب

السامة التي تنمو بغزارة على جدرانها توقفت في هذه اللحظة ...

مات كل شيء .. والجثث الثقيلة كلها تطفو فوق صدري ..
والخوف مات خوفاً ..

جثث الرياح ممددة تحت الاشجار .. وجثث الاصوات ..
والليل الوباء توقف عن الانتشار في عروق الوجود الميتة ..
والعتمة المهيمنة ليست إلاّ خيال اليد المجهولة المعقوفة الأظافر
التي ربما تهوم في هذه اللحظة بالذات فوق المكان . والخوف
مات فيه الرقب والنبض والتشنج .. أحسه غازاً فولاذياً كثيفاً
ينسكب ببطء من جثث الاشياء كلها ويتجمع في الارض
ويعلو ببطء طوفان غادر الصمت ليغرق العالم .. اصرخ :
زيدة ..

لا تتحرك . أخرج من الغرفة مسعورة . المشى الطويل
ميت . لا حس . لا حركة . لا ضوء من شقوق الابواب .
أنا وحيدة في ساحة معركة انتهت منذ ساعات وكف الجرحى
عن الانين وماتوا جميعاً .. خائفة . (يا فراس .. يا فراس
أين نبض عروقلك ؟ .. أريد أن أتمسك بها .. ان أفرح بلمس
الحياة وتوثبها) .. على الدرج أركض مجنونة .. إلى الهاتف .
أمسك بالساعة وأدير أرقامك . الهاتف أيضاً ميت . الجسور
كلها مقطعة .. أقفز مجنونة إلى لوحة الازرار المثة ، كل زر
فيها موصول باحدى الغرف المثة .. سأضغط عليها كلها دفعة
واحدة لتدق الاجراس في الغرف كلها ويستيقظ الجميع ..
طوفان الخوف الفولاذي يعلو ويعلو . يصل حتى ذقي .

بعد قليل أختنق ، وأعجز عن ابتلاع الهواء الميت
الثقيل ..

التصق بجسدي باللوحة .. التصق بها بشراسة .. التصق
بالازرار واضغط وأتمنى لو تمتصني الازرار وتحملني الاسلاك
المثة لتوزعي على الغرف كلها ولأكون في وقت واحد مع
ميتين من المخلوقات الحية التي تنام في الليل .. الاجراس لم
تمت . تنطلق مسعورة . مئة جرس في لحظة واحدة . ضجيج
رائع .. ستستيقظ الجثث بقية الليل ولن أبقى وحيدة مع
الموت الميت .. بفرح أسمع جلبتهن ... بشماتة أنصت إلى وقع
أقدامهن على الدرج .. أتسلل إلى القبو لاختبئ وأصواتهن
الهلعة الهابطة نحو اللوحة تطربني .. حوارهن الفزع يرنخي ..
الآن ، كلهن مثلي ، خائفات وحائرات وغير فائحات يبحثن
عن الشبح المزعج دائماً .. القبو بشع .. بقايا الولىمة في
الظلمة لاحد لبشاعتها .. بقايا الاكل ، بقايا الروائح .. أعقاب
اللفافات المستهلكة ، أعقاب النكات وعبارات الحب المستهلكة ..
بقايا الزهور .. الكراسي الفارغة المشوشة الترتيب .. الزينات
الممزقة .. القبو وجه مومس عجوز ساح ماكياجها .. لماذا
لم يغادروا المكان وكل شيء في أوجه ؟ .. لماذا نشوه الأشياء
باصرارنا على استهلاكها حتى النهاية ؟ .. (ربما انتصرنا على
البشاعة ولو لمرة يا فراس ... وليمتنا ما تزال في أولها ...
نكاتنا لم نقلها بعد ... أساكننا ما زالت حارة ومكسوة باللحم ،
لم نعر عظامها بعد ، ولن تفوح منها قط رائحة زنخة ...
وزهورنا لم نقطفها ، وموسيقانا لم نرقص على ألحانها ، ولم نبدأ
استمتاعنا بها .. ربما لم تكن جريمة أن نفرق ، ربما كانت

الجريمة هي ان لا نجروا على ارتكابها في الوقت المناسب ...
الآن ، سيظل اسمك أبداً يأكلني حباً وشوقاً وحنيناً وجوعاً
كلما ذكرته .. وسأظل أحلم بالساعات التي لن تصدأ لأنها
لن تكون ، وسأظل أستمتع بقبلاتك التي لن أسامها لأنني لن
أناها ، وستظل شفتاك حاريتين بين شففي ، لن تبردا لأنني
لو أطبقت عليهما لما وجدتهما) ..

حزن لا حد لمرارته كان سيعم في القبو لو لم يتم الحفل ..
ولو لم تفح رائحة النهاية المقرفة .. لا مفر . حزن أو قرف ...
لماذا لا يسمح لنا بأن نصنع مصيراً ثالثاً ؟ ..

كيف وأنا سجينه .. وصوت السجن الذي أحبيته انطفاً ..
أتسلل على الدرج . شيء لا يصدق . هدوء عجيب . عدن إلى
النوم ، ببساطة . كلهن راضيات بالخزن أو القرف . كأن
سكان البناء الآخر من الذين لا يطعمون في مصير ثالث .. ربما
عوقبوا لطمعهم بمصير ثالث .. (يا فراس .. ربما دون أن
أدري كنت أطمع بمصير ثالث لنا) لست خائفة .. لم يبق ما
يمكن أن يخيفني .. يجب أن أهرب .. الجدران تقرب مني ،
يجب أن أهرب .. يجب أن أطيء من هنا .. (المكان بلا أفيونك
لا يطاق يا فراس) ارفع رأسي إلى السقف .. لقد هربت الملائكة
التي كانت ملصقة هناك .. ترى هل نبتت أجنحتي الآن بعد
هذه الأعوام الطويلة ...

(- لم تحاول طفلة الهرب من هذا المكان قبل اليوم ..
لو لم يجدهك الحارس لأكلتك ذئب بومانا .. وزغم غطاء
الراهبة على رأسها ، رأيت شعرها يتصب ، ورأسها يستحيل

إلى قنفذ شرس . فظللت أتأملها بدهشة ، ورأسي يكاد لا يصل
إلى خصرها ..

– انظري إلى الأرض يا طفلة الشيطان ..

ونظرت إلى السقف .

وفي السقف كانت هنالك صور ملائكة لها أجنحة ،
رأيتها للمرة الأولى يوم جاءت بي أمي إلى هذا المكان ..
أدهشني أنها ما زالت في السقف ، ولم تغادر ذلك المكان
الفضيع رغم ان لها أجنحة ..

وقررت .. غداً حيناً أكبر وتطول أجنحتي سأهرب وأطير
بعيداً بعيداً ..

وكنت في كل صباح أتخس كفتي بحثاً عن أجنحتي التي

ستطول ..) ..

يجب أن أخرج الآن من هذا المكان . سأهرب إلى الغابة ..
سأتسلل من النافذة الضيقة الوحيدة التي لا تغطيها القضبان ..
ربما استطعت التسلل .. غرفة الألعاب ضيقة ومظلمة .. سوف
أهرب ، سوف أهرب .. ضربات قلبي مرتفعة . ربما أيقظت
المديرة التي لم يوقظها قرع الاجراس المتهمة .. (أين همسك
يخدرني ، يعيدني إلى فراشي مهدئاً) أحمل كرسيّاً وترتجف
يدي وأنا أحاول أن أضعه تحت النافذة بلا صوت . أصعد
عليه . أفتحها . نحيب طويل حزين ممطوط من البناء المقابل .
أرفع ركبتي إلى النافذة وأنا أمسك بأحجارها من الخارج وأتمدد
بطرف جسدي عليها .. نحيب آخر ، ثم عشرات الصرخات
من نباح حاد غريب .. ربما كانوا في البناء الآخر فرحين من
أجلي لأن أجنحتي طالت وها أنا أهرب .. بجسدي النحيل

ورأسي المحني أنزلت على النافذة إلى طرفها الآخر ويصبح
رأسي ونصفي في الخارج .. أستوي جالسة بصعوبة ، نصف
مثنية إلى الداخل لاحتفظ توازني ..

أقفز إلى الأرض ، أحسني أطيّر من النافذة ..

أنا في الغابة .. حرة ..

حزينة لأنني أعرف ان لا ذئب فيها (فراس ، يا ذئبي
الطيب . كيف ... كيف استطعنا أن نفرق ؟) ..

أنا في الغابة .. وحررة ...

وماذا بعد ؟...

لذة عجيبة في أن أتحرك طليقة لمجرد اني أريد أن أتحرك ،
أن أطيّر من النافذة وأعود ليلي حينما يكون علي أن أتمدد في
فراش أمامه باب كتب عليه رقم ٢٠٢ .. أقفز طليقة .. أركض
طليقة وأفتح ذراعي لأضمّ الرياح والليل والصمت
المريب ...

إحساس يشبه فرحاً عجوزاً يغمرني ..

يكبر ويكبر فيصبح فرحاً طفلاً ..

توق غامض الى ما لا أدريه ينبض في أجنحتي وأنا أطيّر

وأطيّر .. الغابة .. أنا طليقة في الغابة ..

كلهنّ نائمات ، يتلقين من النوم أحلامهن صدقة ...

أنا وحدي أطيّر من بين القضبان لأكتشف أحلامي ،

لأصنعها ..

برد برد .. تعبت من الركض .. برد على جيني تتجمد

حبات العرق .. أجنحتي تضمّر .. بصعوبة أنتزع خطواتي ..

بصعوبة أدبّ على التراب الرطب الموحل .

صمت مريب في المجهول الذي أبحث عنه .. صمت مريب
يفوح من رائحة الاغصان العملاقة والظلمة المشبوهة وظلالها
الليثيمة ...

الجنود خشنة تجرح خدي .. همسات وأنين وأصوات
غامضة لمؤامرات مجهولة تحاك في الاجمات ضدي .. على
شجرة ما سوف تمتد اليد المجهولة ذات الأظافر لتشقني .. وحينما
تهز الريح جثتي ويتعالى قرع الطبول سوف تنهال علي الدبابيس
والرماح ، تغرس في صدري . وإذا بكيت فسيخيفني صوتي لأنني
سأنبج نباحاً طويلاً مسعوراً يضيع مع أصوات قافلة العذاب في
البناء المرعب ..

الغابة قاسية ، كالمدينة ، (كالبستاني هول) ، كالجانب الآخر
من التل ونظرات أهله خلف زجاج مقاهيهم ..
عبثاً أصرخ .. في حلقي انتحرت الاصوات رعباً ، وشيء
رخو سقط على رقبتني . أحس بما يشبه الملاقط الدقيقة يتمسك
بلحمي أنقزز هلعاً ..
بلا وعي أنتزعه وأرمي به .. ربما كان دودة كبيرة ...
صرصاراً ... أو ربما ..

آلاف الصور لمختلف الحشرات التي طالما درستها ورأيت
صورها في كتبني أحسها تتحرك الآن في موكب نحيف .. تزحف
في القمة هابطة إحدى الأشجار وتتحرك نحوي ... آلاف الديدان
والعلق والسرطانات والهوام التي طالما شرحتها في المخابر
وثبتت الدبابيس في جسدها على قرص شمعي في حوض ،
وغمرتها بمختلف المحاليل ومزقتها بمشرطي ، كلها تزحف
نحوي حاقدة نهمة ، تتسلق جسدي وتنفذ إلى لحمي خلال

فتحات ثوب نومي الهزيل ... أسمع صوت انسحاق بعضها
تحت خفتي الرقيق وأكاد أسمع انسحاق أسناني المتشنجة ..
الغابة كبيرة .. في الليل ، في النهار ، في الشوارع ، في
العيون ، الغابة القاسية والهمسات المريرة والدبايس والمؤامرات
في الزوايا وأنا وحيدة وحيدة وحيدة : (يا فراس أين
أفيوني ؟) ..

أنا حرة في الغابة ..

ما الفرق ؟.. بعد دقائق أصل أسوارها ، وأمام الاسوار
حراس ، وخلف الاسوار غابة ، وفي الصباح غابة .. لا شيء
يتبدل سوى الاصوات والألوان ويظل المضمون واحداً والهلح
والبرد ...

على الدرج الحجري أصعد بصعوبة ... في الليل يقطن العالم
سكان آخرون ، وعلى الدرج الذي يغلي بالطالبات في النهار
تتحرك الآن عشرات الديدان والحشرات الأخرى الفظيعة .. ما
الفرق ما دمت أبدأ خائفة ومتقرزة ووحيدة .. (الا أيام كنا
نهبط معاً ، معك وحدك يا فراس كان الغاب ينحسر) .

صرت قرب البناء الآخر ...

الأصوات عادت تنطلق . قافلة العذاب بأكملها تعوي والدم
يسيل من ألسنتها المقطعة على حديد أقفاصها .. والليل بارد
وحزين (يا فراس .. أين يدك ؟ دافئة وكبيرة كسقف دار ..
أتكوم في قبضتها وأخفي رأسي تحت إحدى أظافرهما) ..
بمزقني أن أذكر .. ربما لن أبكي ضياعي في صدرك ،
دفع عنقك ، نشوة انسحافي ، همجية انطفائي قطعة من الحديد
المحمى تنتشي في الماء المثلج .. بمزقني أن أذكر يدك (يدك

يا فراس دافئة وكبيرة كسقف دار .. أتكوم في قبضتها وأخفي
رأسي تحت إحدى أظافرها) .
أجنحتي تتكسر ...
أنهار على الدرج الحجري . في فمي دم وزجاج مسحوق ..
بين يدي أدفن وجهي .
أفقد كل قدرة على الخوف أو التفكير أو الحركة أو
الموت ..
أحس بالهزيمة .. بهزيمة كبيرة في محاولة التصاق بشيء ما ..
يبد .. بثدي .. بغيمة .. بجذع شجرة .. بدانتيل وجه أمي ..
بالغابة . بالليل .. بقافلة الغرباء .. بقبيلة « البستاني هول » ..
بفراس ..
مهزومة .. مهزومة .. راية منكسبة على حافة جسر
مهدوم ..
شيء ما يدبّ ويتحرك ملتصقاً بساقي ... أحسّه يروح
ويجيء ..
بلاخوف . ببطء . بلامبالاة الجثث أرفع رأسي .. بعيني
اللتين اعتادتا الظلمة أراه ..
يروح ويجيء متمسحاً بساقي .. يهيمهم ، لعله عاجز عن أن
يبلغني رسالة ما ..
أتحسسه بيدي .. يزداد تمسحاً ووداً غامضاً .. أحمله إلى
صدري .. يستسلم بود عجيب .. يدفن رأسه في عنقي . أحمله
وأنهض به عن الدرج .. يسترخي بتعب من لم ينم عصوراً ..
وأنا أيضاً متعبة يأكلني النعاس ..
يلتصق بي دافئاً ودوداً عجيب الالفة .. أهمس : مدجج ..

هل أنت أيضاً خائف ؟..

يزداد التصاقاً بعنقي وأنا أهبط الدرج وأنحرف في الغابة
لاتجنب حارس « البستاني هول » ..

– مدجج .. هل أمك أنت أيضاً سيدة مجتمع ؟..

تحت النافذة المفتوحة التي هربت منها أقف .

– مدجج .. هل أنت أيضاً عاجز عن النوم ؟..

هل أنت خائف ومهزوم ؟..

يزداد تكوماً في صدري . يخفي رأسه تماماً في عنقي ، واحس
بلفح انفاسه الحارة رغم الصقيع ..

– مدجج .. تعال معي .. كن شريراً مثلي ..

ارفعه إلى النافذة واضعه على حافظها .

يربض هادئاً لا يموء ولا يتحرك . أتلفت حولي . لا شيء
يمكن الصعود عليه كي أتسلق النافذة . في الظلمة عيناه تلتصقان
بما يشبه الترقب .. صرصور كبير يتحرك قرب قدمي . أضع
يدي على طرف النافذة وأستमित لأرفع جسدي .. على الحجر
الحشن اسمع جلدي يتمزق عند الركبتين .. أظل أكافح مسعورة
لاصعد .. شيء حار يسيل على ساقي .. أنجح في وضع إحدى
ركبتي على النافذة .. مدجج يزيع لي مكاناً بصمت . أدخل
رأسي ونصف جسدي من الحديقة إلى الغرفة . يقفز مدجج إلى
أرضها ويقف منتظراً . بهدوء أدلي بساقي إلى الكرسي وأقف
عليه . أغلق النافذة . أهبط عنه وأبعده من تحتها . أحمله فيعود
إلى استرخائه المحبب على صدري . أصعد الدرج إلى غرفتي .

أمر بغرفة المديرية وأسمعها تصرخ بي كما ستصرخ غداً : ستكون
عقوبتك كبيرة ...

* عدت إلى صنع الدمى وغرس الدبابيس .. مثل هذه
الطقوس ممنوعة في مكان مكرس للعلم ..

* قطع شريط الهاتف : أنتِ حتماً المتهمه ، فقد سبق لكِ
إفساد اللوحات الفنية في غرفة الاستقبال برسم شوارب
لوجوهها ، وآذان ققط وأذنان لها .. وسبق لكِ
سكب الحبر على الثياب المنشورة في غرف الغسيل ..
وإخافة الفتيات بالجماجم .. وقرع الاجراس وايقاظ
الجميع .. لولا أمك السيدة الراقية لما تركتك لحظة
هنا ..

* ممنوع ادخال الحيوانات إلى الغرف .. وهذا القط
قضى ليلته في غرفتكِ حاملاً معه الأمراض والقذارة .

أزداد ضماً له ، أحبه حب شريكين في جريمة . أظل اتسلل
على الدرج .

أمام الغرفة ٢٠٢ أحبس أنفاسي وأفتح الباب بهدوء . زبيدة
نائمة طبعاً .. أكاد أنفجر ضاحكة بأعلى صوتي وأنا أذكر عبارتها
التقليدية (لم أعرف طعم النوم منذ جئت إلى هذه الغرفة
المسكونة) ...

بين الأغطية نندس بصمت ..

— سجننا فظيع ، لكنه دافئ على الأقل ، وحشرات لا تغادر
فراشها وغرفها ...

يموء بصوت خافت كهمسي .. جوّ محبّب من الحوار
الغامض ، ثم رأسه مدفون في عنقي ، وجسده الحار يعلو
ويهبط تحت يدي طفلاً يفيض انساً والفة ..
- مدجج .. هل تسمعي ؟ .. فراس مضى ... افترقنا
اليوم ..

مدّ يده الصغيرة يربت بها على وجهي بما يشبه الخنان .
يصمت تماماً كأنما يحبس أنفاسه بانتظار بقية الحكاية ..
متعبة .. أكثر تعباً من أن أستعيد التفاصيل .. أعصابي
اهترأت ، حتى الحفارة فقدت مفعولها .. أعصابي تسترخي ..
العناد والشراسة والمقاومة والتحدي .. كل شيء يسترخي ..
(يا فراس .. أين يداك تحلان ضفيري ، وأصابعك تتخلل
شعري ثم تغطيني بعناية ، وتقبلي على جيني لأنام .. مدجج
يزداد التصاقاً بي .. أصابعي تتخلل شعره . أغطيه معي بعناية
أقبله على جبينه لينام ... ربما في المرآة المقابلة لفراشي
الآن لوحة لطفلين في الغاب التصق أحدهما بالآخر) ..
- مدجج .. هل رأيت اليد المجهولة ذات الاطراف
المعقوفة ؟

أحسه يرتعد . ربما كان هو أيضاً يجهل صاحبها .
- مدجج .. هل أمك أيضاً سيدة تجتمع كبيرة ؟ ..
رغم الظلام يخيل لي انه يبكي . على نخدي دمعة انحدرت
من إحدى عيوننا الأربع ..
- مدجج .. هل تستطيع الصلاة ؟ .. كلما فكرت بفراس
تمنيت لو أصلي بطريقة ما ..
شلل مريح يستولي على أعصابي .. نلدر ، شيء مبهم

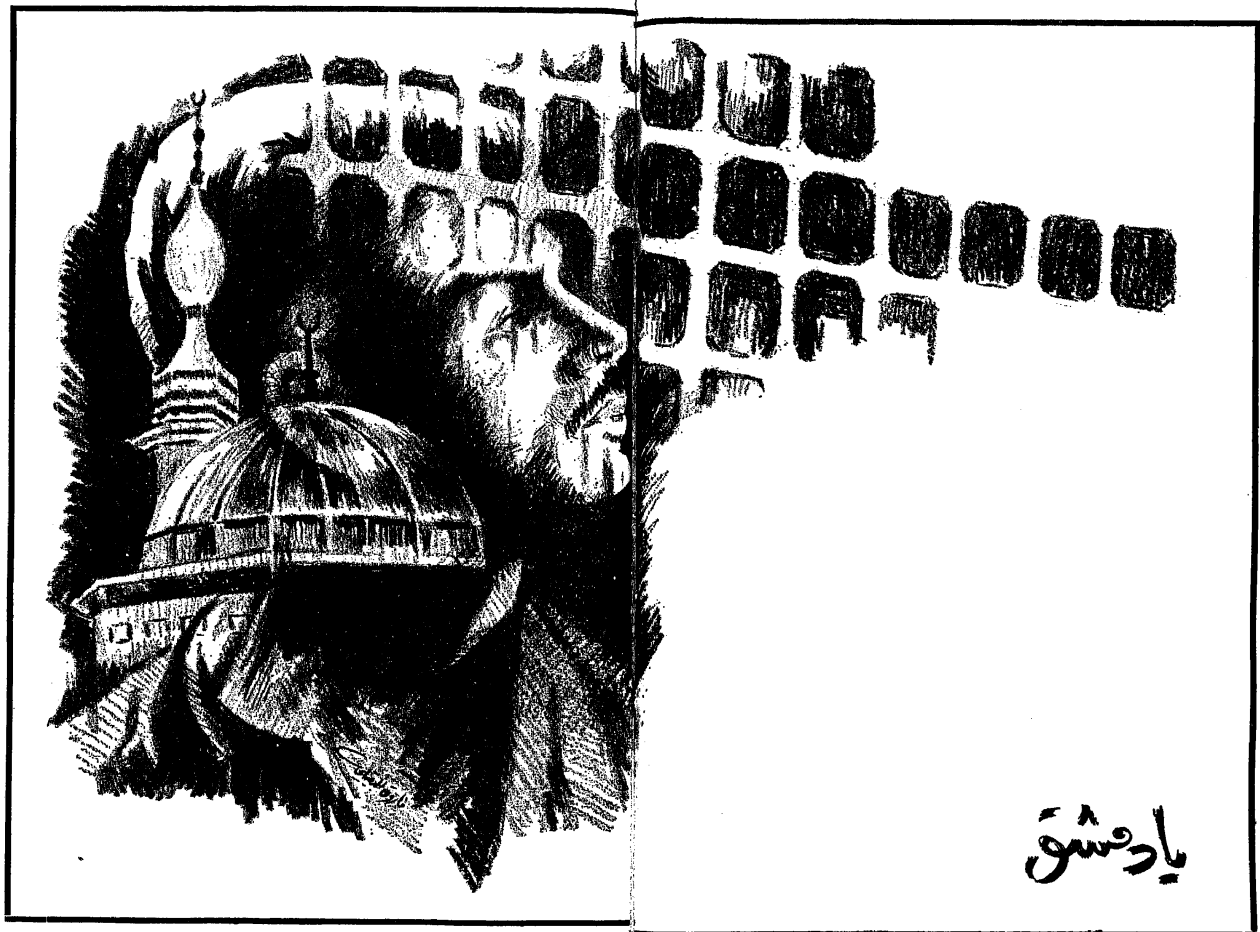
يثقل على جسدي ، ويربض على الصور المتلاحقة في
أعمالي ..

– قل لي : هل يمكن أن يستمر هذا العذاب طويلاً قبل
أن التقي بخدر ما ؟.. «أحييته» كلمة سخيطة تقولها
البنات الطيبات لامهاتهن .. هل وجدت كلمة أخرى ..
وأنا أفقد القدرة على التركيز ، أحس بلسانه الحشن يلحق
خدي بحنان ، وبلدموع كثيرة تغسل وجهي ، وبالسكيننة
الدامعة لجزيرة ، انحسر الماء عنها بعد أن جرف كل
شيء ..

ويظل بلسانه الحشن يلحق خدي بحنان .. يده الصغيرة
على خدي .. تكبر وتكبر .. دافئة وكبيرة كسقف
دار ...

أحس بيدي ذات الاظافر المعقوفة تسترخي ..!

تُرجمت هذه القصة إلى الانكليزية .



یاوستو

وأنا ألوك بقايا الضباب في فمي (ليتني أجده في الداخل
بانتظاري وينتهي هذا الكابوس) ، وأنا اتسلق الدرج العتيق
راكضاً ملهوفاً ، أشعر برغبة لا تقاوم في البكاء ، بكاء طويل
مرير في مكان ما من هذه المدينة ، في أي مكان منها فأنا
أعرف أن أحداً لن يسمعه ، فالمطر لا ينقطع ، وإن كفّ عن
انتحابه برهة ، فالضباب ينبع من الأرصفة ، ومن النوافذ ،
ومن العيون والأفواه ، يغلف كلاً منا في شرفة لا تحترقها اللغة
بفصاحتها أو أنينها ...

حلقي عش يغلي بنمل شره ... إذا لم أجده في الغرفة ، لا مفر من
أن أبكي بكاء رجل مقيد يعرفون حبيبته أمام عينيه . طويلاً طويلاً سأبكي
(- ألا تخجل من البكاء يا حسان ؟ ... وكان أبي قد عاد لتوه
من صلاة الجمعة ... وظللت أنتحب بينما سارعت أمي من
المطبخ : « بابا .. أكرم ضربني .. » وازداد التصاقاً بقامته
المديدة وأسند رأسي إلى ركبته متسولاً حنانه .. يعدني عنه
بخشونة ، ويصرخ بي بلهجة تليق بزعم حي الشاغور : خذ
البندقية والحق به .. لا تبك ثانية في عمرك .. عيب) ..

تضمحل رغبتى في البكاء ، وفي حلقي تنمو نبتة صبار جافة
أبكى بمسامي عرقاً بارداً ، أتوقف أمام باب الغرفة . وأبحث
عن حلقة المفاتيح .

ليتني أجد أكرم جالساً قرب آلة التسجيل ، منصتاً إلى شريط
دفع ثمن عشائنا اجرة لتسجيله ، فنسهر معاً نقنات بالموسيقى
بدلاً من « الجونبون » .. (يا ابني لا تأكل لحم الخنزير
وإلا أصبح وجهك أسود) .. لو أنها ترى يياض
بشرة « آكلات الجونبون » .. لو أنها ترى سوزان
(لما هتفت الى سوزان شاكية اختفاء اكرم منذ أيام ثلاثة هزأت
بي : أيها الشرقي المضحك .. لماذا تفترض انه مرتبط بك ،
وعليه أن يقدم لك تقريراً عن مكانه ؟.. تنقضي بضعة أسابيع
أحياناً قبل أن أرى أهلي ، ولم يحدث مرة أن بلغوا البوليس ،
أو تشردوا في الشوارع) لم أكن أدري انها عاجزة عن فهمي
إلى هذا الحد... مرتان هتفت لها بعد ذلك خلال هذه الأيام
العشرة ، وكان ارتياحي كبيراً لما لم أجدها ...

أفتح باب غرفتي ، وقبل أن أندفع نحو فراشي قذيفة
مطفأة ، أرى بهلع ان فراشه مازال فارغاً !.. مازال كما
كان صباح غادره ولم يعد ، مقعراً وفقاً لخطوط جسده
العماق .

على فراشي انهار . تتكشف ساعات الملح المجنون والتعب
في رأسي ، أحس انني ما زلت أدور من شارع إلى شارع
أبحث عن رأسه الاسود ، بين آلاف الرؤوس الشقر
(- لا تخف ... لا تنظر خلفك والا سقطت .. انظر إلى رأسي
واتبعني .

كنا نتسلق قاسيون ، أعوامنا العشرة تبحث عن الكثر المخزون
في قاسيون والذي حدثنا أننا عنه ... في منتصف الطريق كنت
أخاف ، عند ثلثه كنت أقول أنني خائف . حيناً أرى دمشق
بعيدة في القاع جميلة وبريئة كنت أصرخ ، وبخزم يهمس
أكرم زعيم عصابتنا : لا تنظروا خلفكم .. انظروا إلى رأسي ..
في المظاهرات كنت أبحث عن رأسه حيناً أسمع الرصاص ينطلق.
وأظن أتقدم) .. عشرة أيام . وأنا أدور من حانة إلى حانة ،
من دار صديقة له إلى ركن محب .. ولا أثر لأكرم .
عشرة أيام ... زورت لأبيه رسالة رداً على رسالته ، وربما
كانت أرق ما استلمه الأب من أكرم منذ رحيله . أما رسالة
أبي فلم أرد عليها ...

عشرة أيام ... في الليالي الثلاث الأولى ، كنت ما أزال
قادراً على نوم متقطع ، أهب منه مذعوراً ، وأنا أسمع
صورة حبيته سهام ، تنتحب في اطارها المواجه لسريه بصوت
خافت ، مرير ، يذكرني بنواح الريح في زقاق بيتنا الضيق
(مع نواح الريح في الليالي العاصفة كنت أدخل الدار عند
الفجر على رؤوس أصابعي مستأنساً بشخير أبي ، لا عنأ صفير
الريح التي أعرف أنها تبقي أمي مستيقظة .. ثم لا ألبث أن
أسمع صوتها : « يا حسان .. صلّ الصبح قبل أن تنام » ..
وأرتجى في فراشي دون أن أخلع قميصي الملتصق بحمرة
الشفاه) ...

عشرة أيام .. في اليوم الثالث بلغت الشرطة .. في اليوم الرابع
طلبوا مني الذهاب لتفقدته بين جثث أصحابها مجهولو الهوية ...
(هيا تقدم .. ما بالك خائفاً ؟ .. لا تنس أنها جثث ميتة ،

أنت الشيء الوحيد الحي هنا .. وتركني وعاد إلى الباب ،
ووجدتني بين عشرات الجثث الممددة على الطاولات الحجرية ،
بعضها شبه مشوه ، بعضها فقد عضواً من أعضائه .. درت في
المسلخ الكبير مذهولاً ، لم يحدث ان تعرفت على الموت من
قبل في هذه الصورة العارية العزلاء .. نظرات زرق وملامح
منتفخة ورائحة عفن بارد ، وميتون بلا أسماء ، بلا مراسم ،
بلا وليمة ، بلا قبور .. بلا شيء سوى الموت الحقيق بلا أجماد
ولا تصعيد شاعري للموقف) .. عشرة أيام .. في كل يوم من
الأيام السبعة الأخيرة ابدأ طوافي بالمسلخ ..

في اليوم الثاني لم أشعر بأي رعب .. في اليوم الثالث غمرني
خدر عجيب وأنا أرى تعبير القرف على أفواه الجثث ..
في اليوم الرابع بدأت آلفها .. افتقدت بعض الوجوه التي
لفتت نظري .. أعجبت بالتحدي المرير الذي يطل من جمود
العضلات المتصلبة ..

في اليوم الخامس هرعت إلى المسلخ .. كانت قوة خفية
تشدني إلى الموت العاري هناك .. الموت بلا أفئدة ، بلا طقوس ..
(أكرم ، أحس انك بطريقة ما هناك .. وانني أنا أيضاً هناك
ممدد على إحدى المناضد الحجرية جثة زرقاء باردة ربما كان
وجهها إلى الأرض ولو مددت يدي وادرتها نحو ي لرأيت
وجهي) ..

في اليوم السادس أحسست ان المدينة التي أتحرك فيها بجناً عن
أكرم امتداد كبير للمسلخ ، ورائحة العفن تفوح حتى
من المطر ، ومن الضباب ، وربما من عطر سوزان ..

(سوزان .. أحب رائحة البارفان هذه .. ما اسمها ؟ هل هي « كارفن » ؟)

— أجل .. انك تمتدح ذوقي دائماً ..

— الحقيقة اني أحبها لأنها تذكرني بحبيبة غالية خلقتها في دمشق .. يبدو اننا نحب الموسيقى والعطور لأنها تعيد خلق أجواء سبق لنا أن عشناها .. انها كالفن ، أسلوب نحارب به موت اللحظة ، أسلوب لاعادتها إلى الحياة ، لبعث ظلالها وأصدائها ولو لبرهة ...

— وهل اسمها يشبه اسمي أيضاً ...

— أجل ! اسمها سوسن ياسوزان ! ..

— طباعها ، شخصيتها ، أفكارها ، هل تشبهني أيضاً ؟ ..

— أجل ! لها عنادك واعتدادك وطموحك وقوة شخصيتك أي

جميع الصفات التي أحبها فيك ..

— وهل ستزوج منها حينما تعود ؟ ..

— طبعاً لا ..

— لماذا ؟

— لأن لها هذه الصفات ! ...

— أيها الشرقي المتناقض .. (..)

في اليوم السابع ، دخلت إلى المسلخ كأنني ذاهب إلى الفندق الذي أعيش فيه .. بصلاية واستسلام من أدرك الحقيقة ، كنت أتجول بينها ، احدها بصمتي ، وتحديثي باشمئزازها وتحديها .. واكرم لم يعد ، وأنا من شارع إلى شارع ، لا أزيح نظراتي عن شريط الرووس المتحرك إلا لأرقب اشارات المرور الحمر والخضر ، أو لأتبين مدخل دهاليز المترو في الضباب ..

والرؤوس تطفو ، ثم تغوص في الضباب .
عشرة أيام .. أسير وأسير وأسير .. كم أنا متعب .. ليتني
أنام .. ماذا حدث لك يا اكرم ؟ ..
أغمض عيني واسترخي برهة .. أسقط في بئر مظلمة ..
رأس اكرم ممدد تحت عجالات تطحنه .. رأس اكرم مقطوع
على صينية فضية ترقص لها شقراء شبه عارية .. رأسه يتدحرج
بين أقدام ملايين الراكضين المسرعين ... رأسه سقط في الآلة
القاطعة لاجهزة حديدية ، انه يفرم بلا توقف .. أصرخ .. اسمع
صوتي وأنا أصرخ وأهب مذعوراً من نومي ... ربما غفوت
بضع دقائق لا أكثر ..

أشعل النور إلى جانب فراشي .. هذه رسالة أبي التي لم
أجب عليها .. يقول : « رمضان قد جاء فلا تترك الصيام
يا بني .. وقل لبحارتك أن توقظك وقت السحور وقد تسحرك
معها » .. لماذا لا أجعله يفهم ما أواجه ؟ .. لماذا لا أقول له ان
لدى جارتى الآن عشيقها ، وان ملايين البحارات هنا لا يعرفن
ما هو رمضان ، وانني إذا حدث وامت جوعاً ، لن أجد
من يقول لي : « تفضل » إذا لم أدفع ثمن الملح والماء ..
هذا العالم الحلو الذي ربينا عليه ، لماذا لا يوجد إلا في
خيالاتهم ؟ .. (- ماذا تقرأ يا حسان ؟ ..)

- جغرافيا يا بابا .. يقولون ان الشمس تشرق من الشرق
وتغرب في الغرب ..

- الشمس يا ابني تشرق من الغوطة حيث قطعنا رقاب
الفرنسيين ، وتغرب وراء قاسيون ، قرب المئذنة التي كان جدك
يوذن فيها ، والتي نذرت للرحمن أن اوذن فيها كل يوم جمعة ،

حينما وفقني الله في تجارتي (..

أشعر بأني أختق . أزحف نحو النافذة . الصق وجهي
بالزجاج البارد ، لا شيء سوى الضباب في الخارج ، لا جواب
سوى سجن الزجاج وصمت الضباب الذي يفور بلووم غاز خانق
وانا ، سمكة سجين ، أتمسح بالزجاج (هل أطعمت
السمكات يا حسان ؟...)

— ماما .. ليست جائعة .. لا أدري ما بها ..

وكنت أتأمل عيونها الكبيرة الحزينة وهي تحاول دفع زجاج
الوعاء برأسها .. وحاولت أن أحمل وعاءها عن البحرة واركض
به لألقي بها في نهر بردى لترحل إلى المنابع والمصبات وتري
من أين تشرق الشمس .. ولكنني لم أستطع حمله . كان ثقيلاً
أكبر حجماً مني . وفقرت : يوم أكبر لن أترك سمكة
سجينة (..

اني وحيد كما لم أكن أبداً ، لقد مضى أكرم ومضت معه
دمشق التي ظللنا نعيشها في قلب لندن .. اني الآن وحيد ،
أتحرك في المسلخ بعيداً عن كل شيء ... أين أنت يا دمشق ؟
يا غالية .. تنامين في صدر رمضان كأنك أدبت كل ما عليك من
جزية للحياة .. اني أراك الآن .. ازقتك الضيقة يرتمي عليها
النور الواحد بعد الآخر .. يستيقظون للسحور ويفتحون النوافذ
يرحبون بالقمر الاسطورية .. والقمر لم يعد اسطورة ، صار
موقعاً استراتيجياً يتسابقون لابتلاعه .. صوت المؤذن يتعالى مع
النسيم البارد المنعش ، ورائحة الطعام تفوح والأدعية والصلوات ،
وأبي بوجهه النظيف ، وأمي توظف اخوتي .. والصفاء ، وعالمنا
الصغير البريء ، لو يدرون انه في فم تمساح .. ليتهم يسمحون

لنا بأن نعرف ، وان نواجههم بما نعرف كي ننتقد المدينة قبل
أن يلوك التمساح أمتها وقيمها ولا تقوى على الدفاع عنها ..
أين أنت يا دمشق .. أيتها الوديعه الأصيلة ، لماذا لا تنبت
أظافرك دون أن يتشوه حنانك ؟ .. وكبرياؤك التي ربينا عليها ،
لا نملك إلا أن نظل أوفياء لها ، لماذا لا تفهمين اننا ما رفضناك
إلا لأننا أحببناك ... لأننا أدركنا عجزنا عن الالتئام إلى سواك ،
لأن شتلنا في أرض غريبة مستحيل ، فنحن رغباً عنا نعبد تلك
الاصالة الانسانية فيك ، ومن أجلها نثور عليك ... يا دمشق ..
يا نبع قاسيون ويا كتزه .. يا ليلك الوديع ، والوجوه الراضية
المطمئنة تلتف الآن مترابطة سعيدة حول مائدة السحور ..
(يا ألدائك المتحجرة يا دمشق .. يا أمي العاقبة المعبودة .. كان
اكرم يردد ذلك بمرارة . وخيّل إليّ انه سوف يضرب رأسه
بالحدار ...

.. ليتهم يؤمنون معنا ، بأن الوحش الحديدي هنا ، لا يحارب
بحجابات البدائين ، مهما كان صدقهم) ..
أظل أروح وأجيء في الغرفة .. خشب الأرضية العتيق
يصر تحت أقدامي .. أحس بأني أسير فوق تابوت ، سوف
ينفتح بين برهة وأخرى تحت قدمي وأسقط إلى داخله . قشعيرة
باردة تغمرني . أتعثّر بمنضدة صغيرة عليها أشرطتنا المسجلة
واسطواناتنا .. أنحني لالتقاطها .. هذه هي سيمفونية برامز الأولى ..
(كانت ألحانها تغمر الغرفة ، وسوزان ممددة إلى جانبي ،
واكرم لما يعد بعد . وكنت أحس بأن مآذن دمشق تنهار فوق
رأسي حجراً حجراً ودمشق تنهار في عيني ، وانني أحبها

وأحبها وأرفض أن أهجرها ... وسوزان زئخة وبشعة كبقايا
سمكة في صحن ..

— ماذا بك ؟ هل تذكرت سوسن ؟..

وانتفضت ملسوعاً ، ضايقي أن تلفظ اسم سوسن في هذه
الغرفة الزجة ، التي تفوح منها رائحة مخدر يفقد تأثيره في بعض
اللحظات .. بقسوة أجبها : لا تلفظي اسمها في مثل هذه
الجلسات .. استدارت في الفراش هازئة لا مبالية ، بسخرية
همست : متناقضون .. تخفون أعينكم باحدى يديكم كي لا تروا
ما تفعلونه باليد الأخرى ... وظلت تضحك .. مرة حدثت
سوسن بهذه اللهجة القاسية ، ظلت أسبوعاً بلا طعام ، وربما
بلا نوم) .

أتابع للممة الاشرطة المبعثرة .. هذا الشريط كدت أنساه ..
هدية والذي الأخيرة لي ..

(في المطار قدمه إليّ وهو يقول : سجلت لك فيه الاذان
بصوتي .. أجعله ملاذك الأخير وهو بأذن الله سيفتح لك الأبواب
الموصدة . وعند أبواب لندن أخفيته في محفظة أوراقي وأخرجت
جواز سفري ومحفظة نقودي .. ان للعالم منطلقاً آخر ولا مفر من
الحوار معه) .

أترك الشريط على المنضدة . أهرب من الغرفة ، سأعود
البحث عن اكرم رفيق نضالي ، رفيق ضياعي ..

من جديد أعوم في بحر الضباب ، أحسه يتبع من رأسي ،
من أفكار المشوشة المشتتة .. من ضياعي وحيرتي وانفصالي الحاد
عن أية مجموعة بشرية .

(أين عينك يا سوسن ؟ صافيتان صريحتان بلاضباب ، كان

يضايقي صفاوهما ووضوحهما !!.. أين انضمامك الحاسم إلى
كياني ، تأكلين حينما أجوع ، تتنين أماً حينما أمسك بحبات
« الاسبرو » وأتياً لابتلاعها وتهسين : رأسك يؤلني
يا حسان) ..

فلاستقل « الباص » ، سألتقي بعدد من الناس مضطرين
للارتباط في مكان واحد مسافة محطة واحدة على الأقل ..
قاطعة التذاكر العجوز تتناول النقود مني وتدير آلتها القاطعة
الصغيرة .. الاعياء باد على شيخوختها التي لم يرحمها العمل .
تشبه أمي ، لا ريب في انها أم لشاب أو لفتاة ما ، كيف
يركأنها تعمل هكذا ؟... ربما كانت أم سوزان ، وسوزان كما
قالت لا تتصل بأهلها ربما خلال شهر أو أكثر .. لو سقطت
الآن ميتة لحملوها إلى المسلخ ريثما يسأل عنها شخص ما ..
أشياء كثيرة أمقتها هنا كما أمقت أشياء كثيرة هناك ..
(اني على الحسر بين عالمين .. والحسر يغمره الضباب ،
ياسوسن حينما كنت تتحدثين بهذا الأسلوب كنت أعجب بك
أنقم على إعجابي بك .. ربما كنت مثل أبي ، لكن مأساتي
هي انني أدري ، أما هو فلم يكن يدري) ..
عينان واسعتان بلخارتي في المقعد أحس نظراتها تتحرق جانب
وجهي .

التفت إليها باعتداد عربي يعرف انه الاسمر الوحيد في
الباص ، وربما في الحي كله .. تشبه القطة بشعرها الناعم
الطويل المنسدل على جزء كبير من وجهها ..
عينها زرقاوان فيهما تحد متعب منعشن .. أدت وجهي
عنها إلى النافذة ، ثم وجدني أتأملها طويلاً من جديد .. ربما

كان شيء آخر جعلني أعود بنظراتي إلى وجهها ، فالنساء جميعاً هنا يشبهن القلط .. ربما كانت تلك الزرقة الخفيفة التي تسري تحت بشرة وجهها المشوهة بآثار جدري قديم .. ربما كانت بشاعة التشويه ، ربما لأنها تشبه امرأة رأيتها ممددة في المسلخ قالوا ان التيار صعقها ..

ووجدتني اسأل ثيابها عن هويتها .. ليست طالبة على أية حال ، وفي ذوقها كثير من الرخص ، لكن عينيها الزرقاوين مريحتان بتحديهما الجشع ، ونهمهما المرهق إلى الامتصاص . تشداني .. أحسني بقعة من حبر لم يحلها قلم إلى سطور مفهومة ، ليتني أنتهي بطريقة ما ، يمتصني أي شيء ، أية ورقة نشاف ، وفي عينيها الزرقاوين شره أوراق النشاف إلى امتصاص بحر بأكمله .. (سوسن .. بصدق أحبيتك ولكني أيضاً كنت أخشاك .. كنت أشعر انك قادرة على امتصاصي بطريقة ما ، على تدمير السيادة التي يمارسها أبي على أمي .. الآن أدرك كم هو مريح أن تمتصني غربي وأحزاني وأحس معك راحة اللقاء الصحي ، لا استرخاء التخدير .. التخدير) ..

التخدير .. والمرأة إلى جانبي تقرب مني ، الباص يقف فجأة وهي تنتهز الفرصة لتمسك بيدي . اتركها لها بقايا يد رجل .. (وكانت يدك غارقة في يدي في الظلمة .. كانت حارة ومرتعدة لها جراحة غانية وخفقان عذراء وارتعاشها ..

— سوسن .. ماذا بك ...

وظلت يدك تمسك بأصابعي بقسوة ، بخنان لا حد لمرارته .. همست : أتساءل عن الليالي التي ستكون فيها هذه اليد لأخرى . وأسأل هل يمكن أن أجد يدي ربما بعد أعوام في يد رجل

آخر ونحن جالسان هذه الجلسة نفسها؟.. وأنا أحمل له الصديق نفسه الذي أحمله لك الآن؟.. ان ذلك لا يطاق ، هذه الحرب بين صدقنا والزمن غير متكافئة) .. يا أكرم ، أين أنت .. لاني متعب ، ربما لأنني لم آكل منذ زمن طويل .. عيناها الزرقاوان ما زالتا تتحديانني . ماذا أملك لها ، (قال اكرم ربما حفنة من نقود) وماذا تملك لي سوى حفنة من دقائق التخدير ؟.. يدي مازالت في يدها ، أحسها تبرد فجأة تتحول إلى يد لرجة ميتة . انتشل يدي يتوقف الباص . دون أن أعرف أين أنا أنهض وأهبط . أسير . التفت . انها ورائي . إذن فهي واحدة منهن . الضباب ملايين من اشارات الاستفهام والتعجب . على أية منضدة في المسلخ تراك يا أكرم ؟.. اني بحاجة إلى صدر أدفن رأسي المتعب في حنانه (يا سوسن .. كم ظلمت صدرك لما شددتني لأدفن رأسي فيه بينما كنت أعاني المتاعب التي قذفت بي إلى هنا .. انزعته بعنف وسألتك بقسوة أبي وهو يطلب من أمي تحضير نارجيلته : ماذا تصنعين ؟.. هل أنا طفل ؟.. بمرارة همست : يتخيل إليّ ان لحظة الحب الكبيرة هي حينما نأوي إلى صدري ويفمرك إحساس عميق بطمأنينة طفل) ... إلى جانبي تسير . لم أعد قادراً على رؤية آثار الجلدي في وجهها ، الشارع شبه مظلم ، وخاو ، والبرد لا يطاق ، وهي تبدو ظل أنثى شهية بشعرها الطويل ، وقامتها الرشيق النحيلة .. (همس اكرم قبل أن يلتقط غانية من المقهى : جرعة مخدرة رائعة) .. باستسلام انقصاد لها ... اني متعب وضائع والاشياء كلها قد استوت لدي .. يا دمشق .. أين لياليك

والتسكع في شوارعك ؟ .. أين النبع الذي لم يتسخ ؟؟ ..
(وكان الليل زنبقة سوداء على كتف بردى ، وقد خرجنا للتو
من مطعم أبو عدنان وسرنا حتى قهوة بن عازار .. التقينا بكال
جالساً عند بائع الصبار فانضم إلينا .. سرنا نتفقد شرفات حبيباتنا
النائمات .. نستسلم لخطانا النائمة .. ومن كل حجر رصيف من
كل بناء من كل ذرة ريح في دمشق يفيض شيء محبب مشحون
بالاصالة والحنان) ... المدينة هنا أحسن ان فيها شيئاً يركلني ،
وربما يركل أهلها جميعاً حتى يقفزوا من مكان إلى آخر والقسوة
على وجوههم والخشونة في احتكاكاتهم .. يا دمشق .. أي سرّ
فيك يشدني إلى أضييق زقاق في الشاغور ، أي كتر في قاسيونك
يسمر أعيننا على العودة أينما كنا ، أي نبع أصالة نأمل في أن نفجر .
تدور بي الشقراء في أحياء لا أعرفها .. نتنقل من زقاق إلى
آخر .. وقع خطواتنا كتيب ومتهاك ..

أسير وأنا منقاد لها .. أحس آلافاً من حجب الضباب تسقط
على صورة دمشق في خاطري ، أحسها تبحر في نفسي إلى ابعاد
ناثية سحيقة .. فلأنتم إلى هذا العالم الذي تهاجم أمواجه
شطاني بقسوة اسنان التمساح .. فلأحاول على الأقل .. اقترب
من المرأة وأقبض على ذراعها بشدة وقد سارعت في خطاي ..
لا أرى الدهشة التي تبدت في عينيها فجأة ولكنني أعرف أنها
هناك .. بيدي الثانية أتمسك ذقني التي لم أحلقها منذ أيام عشرة .
إذن فهي بحاجة إلى حفنة نقود ، ومهما كان غروري لن أتوقع
من أية امرأة أن تسقط صريعة هواي منذ النظرة الأولى وأنا
أشبه روبنسن كروزو .

أحد المخازن ما زال مضاء . تهمس بشبه استعطاف : دعنا

نحمل معنا شيئاً من الطعام والحمرة .. إذن فهي تريد الثمن مقدماً .. فليكن ، انها مخدر لا بأس به في الظلمة ، وسأهرب قبل أن يطلع الفجر وأرى بقايا المائدة .. في المخزن قلت لها اختاري ما تشائين .. دارت على الرفسوف .. والبرادات .. حملت معها خبزاً وخمرة وسمكة كبيرة .. (كانت السمكة تنصدر المنضدة ، شهية وحارة .. وسوسن إلى جانبي ، شهية وحارة أيضاً .. بعد دقائق لم يبق من السمكة سوى هيكل عظمي عار وفاحت منها رائحة زنخة مزعجة .. لوت سوسن بوجهها بحثاً عن الخادم ليلملم بقايا الوليمة ، وأخذت تحدق في بردي الذي كان ينساب بهدوء في تلك البقعة الحميلة من « العين الخضراء » .. همست بحزن فجأة : أكره أن أرى النهايات ، أن أرى بقايا الأشياء الحميلة نشوها كي نتلذذ بها ثم لا نملك إلا أن نتقزز منها ..

— ماذا تقصدين ...

— لن أكون لك أبداً إلا إذا تأكدت من انك تحبني .. لا أريد أن أجد نفسي ذات يوم ممددة على اريكتك زنخة ولزجة كهذه السمكة .. شيء واحد يجعلني أبداً شهية في طبقك، أبداً متجددة وعطرة .. الحب ..)

الحب يا سوسن ... لذا سأهرب الليلة قبل أن يطلع الفجر وأرى آثار ما كان .

الحب يا سوسن ... ثرت عليك يومئذ لأنك تعرفين .. خبرتك التي أحبها أغار منها .. واليوم والبارحة وكل بارحة في هذه المدينة وأنا صائد أسماك نهم لا يشبع .. لقد كانت سوزان على حق اني متناقض ...

أمام بناء متهدل كخدي مومس في الخمسين نتوقف . تقودني
في درج ضيق تكاد درجاته تسقط ، جدرانه متهالكة تذكّرني
باليوت التي كنت أبنيتها مع اكرم بورق اللعب .. الحق بها ..
أريد جرعة مخدرة ، تعيدني حيواناً في الغاب ، لا يبالي بمنابت
الشمس أو كنوز قاسيون أو نبع دمشق أو عيني سوسن
العابتين أبداً .. لاني متعب ، كأنني أحفر في صدري للأساس
الذي أود أن أبني مدينتي وفقاً له من جديد ..
(صرخ أكرم صبيحة يوم اختفائه : سأغادر هذا العذاب كله
إلى جزيرة آكلي اللوتس ، سأسبح في بحر حار من الحمرة ،
التصق بالجزر المرجانية وكحيوان بحري كسول سأستسلم لدغدغة
التيارات العميقة) ..

أمام باب غرفة في الاعلى نتوقف برهة ، ريثما تفتحه .
أتأمل ساقيها .. أنها جميلتان مشدودتان .. لاريب في
أنها تكسب جيداً من (عملها) هذا ، وهي بهذا الشباب .
لا أستطيع أن أفهم لماذا تقطن مكاناً فقيراً حقيراً كهذا ..
(أين أنت يا أكرم ؟ .. في مكان حقير كهذا .. ربما في غرفة
مجاورة .. وربما سأجدك في الداخل)

تفتح قفل الباب وتتقدمني . بسرعة ألحق بها . تغلق الباب
بهدوء وبيضاء دون أن تشعل النور . تتحرك في مكان ما من
الغرفة واسمع وقع حملها على خشب منضدة ما .. تفوح من
جو الغرفة رائحة كريهة . حلقي جاف . صوت كلب يعوي
باسلوب انساني مبحوح .. ارتجف . حفنة المخدر هذه لا أعرف
اسمها كي أنادى بها . حلقي جاف . (هل شربت قهوتك
يا حسان ؟ .. إنها من صنع يدي ...

بكل ما لدي من سخرية أجبتك : هل تحاولين إقناعي
يا سوسن بأنك زوجة ماهرة ؟..

وأرشف القهوة ، ألد ما فيها قطرات « ماء الزهر » المعطر ،
وأتلذذ بها بينما أنا أسخر منك .. وتظلين تأملين وجهي بعينين عاشقتين
دامعتين ، راضيتين ، لأنهما تعرفان اني أتلذذ بقهوتي !) ..
حلقي جاف . أين اختفت حفنة المخدر هذه . أنفاس إلى
جانبي . ها هي يدها تمس ذراعي . تشدني في عتمة الغرفة .
جو المكان يثير هلمي ، كأنني في المسلخ هناك بين الجثث وقد
انطفأت الأنوار . صوت تنفس مرتفع . ربما كان صوتي .
أستسلم لها . بدأت عيناى تألفان الظلمة . تجلس إلى حافة شيء
ما أتبن في الظلمة بصعوبة انه سرير .. أترك نفسي أسقط إلى
جانبيها ..

بخيبي ، بقرني ، بسأمي ، بارتعاش مدمن طال عليه الأمد ولم
يتناول جرعه . اضمها إلى صدري .. أحسها صلبة ومتصلبة وباردة ..
(لما ضممتك أول مرة إلى صدري لم أجروء على أن أقبلك ..
أحسستك حارة ، تنفضين كعصفور أصيب للتو بطلقة مميتة ،
بصعوبة كنت تتنفسين ، خشيت أن أخنقك لو قبلتك ، أن أصهرك ،
ان افتلك وأنت طرية هكذا ، هشة وصادقة . يا سوسن ، أين حنانك) .
كذباب جائع اهوم بشفتي بحثاً عن منابع النسيان .. تستسلم لي
بيرودة عجيبة ، تتحسس ظهري بمهارة ممثل أتقن دوره حتى
صار يمارسه ببلادة ورتابة .. شفتاها باردتان ، فيها تشنج جثة ..
(أنا في المسلخ على منضدة حجرية ، يرمون فوقى ببقايا المياكل
العظمية لأسماك ننته .. يضربونني بها على وجهي على رأسي ..
أحاول أن أنهض .. لا أستطيع .. أكوامها فوقى .. أحاول

أن أقاوم لكنها ثقيلة فوق صدري ، رائحتها تخنفي) ...
مازلت أقبها وصقيع ازرق كالسم ينمو بين شفاهنا ، عيناً أوقد النار
(أركض متلاشياً حائراً على جسر بدأ يغرق في الضباب .. إني بحاجة
إلى مخدر) ..

مهارتها في عناتي تثير تقززي .. تذكرني بأنامل سوزان المدربة
التي ما أكاد انتشي بحذقها حتى أثور لذلك .. تدفن وجهها في
عنقي وقد بدأ شيء يشبه الدفء يفوح من التصاقها ..
(سوسن ، لماذا لا تكفّ صورتك عن الانتحاب ؟ ..
إني أسمعك هناك .. في غرفتي .. دعيني انمدر) ..
الرجبة في تحطيم شيء ما ، في استفاد شيء ما تغمرني .. السمك
العفن ما زال يظنني ، أفقد القدرة على الشم وعلى التفكير ، أريد
أن التصق بشيء ما ، بأي شيء ... إني وحيد وبائس ..
(اسوارك يا دمشق تعلو ، سوسن تلوح من خلف الاحجار الشفافة ،
أنا ابتسم للمسلخ ، أنهض إلى المنضدة الحجرية المجاورة حيث جثة
المرأة التي صعقها الكهرباء ، التصق بها .. سيولد طفلنا ميتاً !) ..
أسقط في بحر لزج ، أستسلم لتيارات الاعماق بنشوة حيوان
كسول .. كل شيء يغرق في الضباب ، والجسر يغمره الضباب ،
وأنا لا أدري أين أنا ، لا أدري ما الانا ، لا شيء سوى أنهم
مخدر ذليل .. لا شيء سوى سقوط مخدر ارحل معه بعيداً إلى
مدن قديمة ابتلعها البحر واستقرت في القاع ... أتجول بين
الابواب الصدئة والكنائس الهرمة بمرونة صفصافة تتمايل مع
الرياح .. لا شيء سوى نعاس آكلي اللوتس ..
فجأة ، يخيل إليّ اني أسمع صوتاً ما .. تتوتر عضلاتي ..
تستيقظ غريزة الفهد .. أرهف سمعي ، أفتح عيني وأحدق

حولي .. الحركة تزداد وضوحاً .. إذن لم أكن واحماً .. للمرة الأولى يخطر لي أن أتساءل : أين أنا ؟ .. ماذا أصنع في هذه الظلمة ؟ .. صوت متقطع يشبه الانفاس اللاهثة .. صوت يشبه أنين انسان مكتم .. يداها ما زالتا في رحلتها الخبيرة فوق كتفي وظهري .. أظل جامداً .. تراها لم تسمع ما سمعت .. أهمس في أذنها : اسمعي .. من هنا ؟ .. بصوت لا أثر للعاطفة فيه تجيب : لا أحد .. لا دخل لك بذلك .. هيا ، استمر ! ...

ويموت كل شيء ، حتى الرغبة في التخدير ، حتى الرغبة في الهرب .. أجدني أنصت بجذر مرهف .. لاشك في انه صوت تنفس انسان .. أنفاس ثقيلة متلاحقة فيها انتحاب أخرس مكتوب .. بصوت لم أقو على خفضه أهتف : اشعلي النور ...

تفح : اصمت !! ...

بصوت اظنه يشبه الصراخ اعيد : اشعلي النور ...

تفح : اصمت !! ..

وينبعث بكاء طفل . تتوقف المسرحية فجأة . تسترخي يداها . تتريث . بكاء الطفل يعلو . ينضم اليه بكاء طفل آخر تنهض من الفراش . ربما كانت تتحسس زر النور . النور يغمر المكان فجأة . أتلفت حولي وأنا أمسح بقايا زبد برد فجأة على شفتي . أقفز جالساً وأكاد لا أصدق ما أرى . رجل في الفراش المجاور . أتوقع أن ينهض ، أن يثور ، أن يقول شيئاً . لا يتحرك ، لولا عيناه المبتتان على وجهي بشراسة وحقد لظننته ميتاً .. انهض عن الفراش والملم أشياءي . يظل يحدق

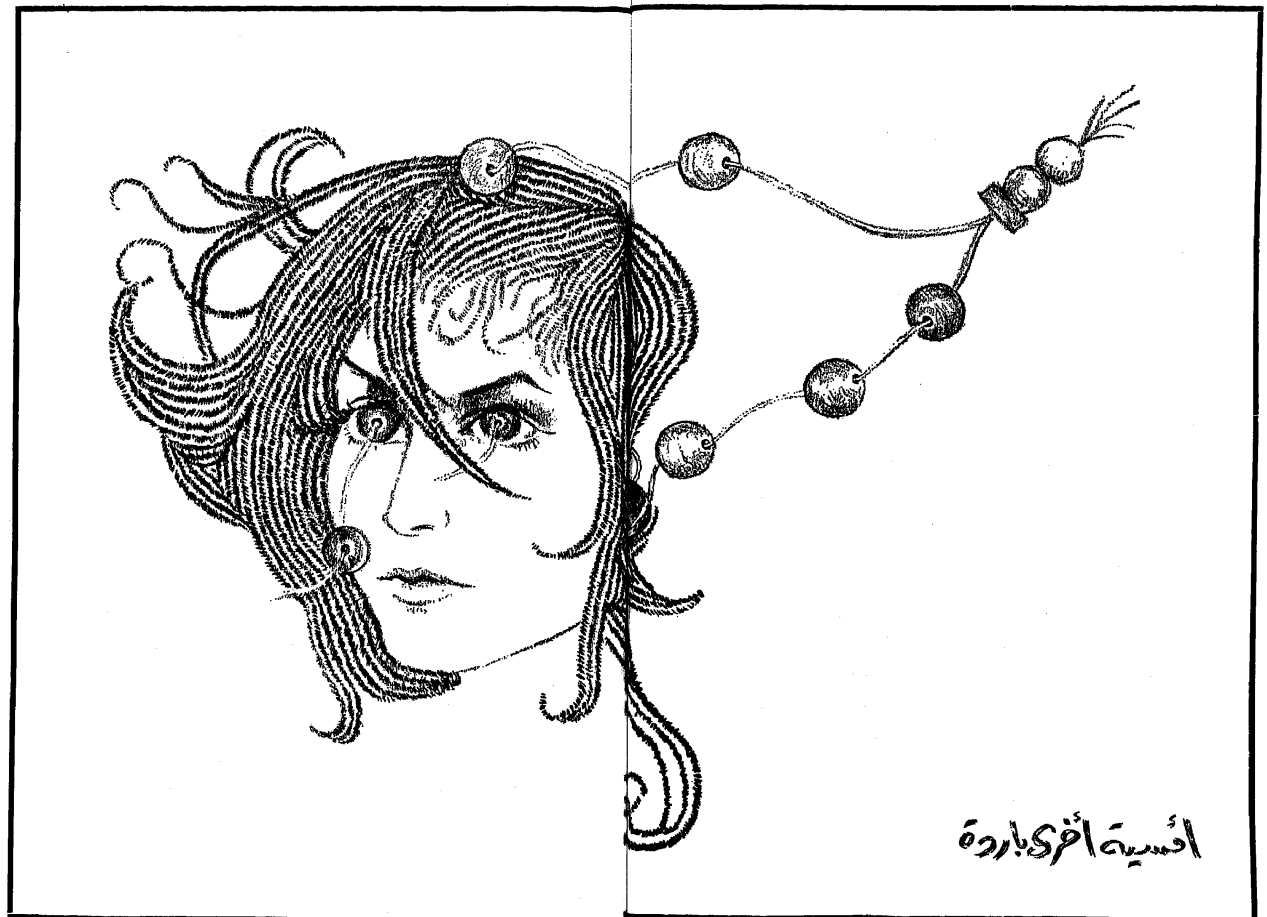
بعينين باردتين تشوب بياضهما زرقة مرعبة الاحمرار .. أتقدم
من الباب لأهرب ، رغم ذلك لا يتحرك . لا ينطق . ربما كان
زوجها .. أحاول أن أزيح نظراتي عن وجهه لأبحث عنها ،
لكن شيئاً رهيباً في الوجه الجامد يشدني إلى أن أظل أتعذب
بتأمله .. فيه مرارة جيل من الرجولة ، شلها وبشاعة
انحدارها ...

صراخ الطفل بدأ يهدأ . انها في الركن تهدده . الطفل
الآخر يسعل سعالاً خشناً مجرحاً يذكر بجروح سجين عذب ثم
سكب عليه ماء مالح . على منضدة حقيرة بقايا خبز مفتت ..
هذا كله أراه في مثل ومضة برق ، ثم تعود نظراتي إلى أسر
النظرات الزرق للرجل الجثة .. لعلها تلاحظ هلعني إذ تهمس
بلامبالاة عجيبة .. باللامبالاة نفسها التي كانت تضميني بها :
لا تخش شيئاً .. انه زوجي .. ومشلول !.. أسف الرجل لمنظر
رجولة مهانة يمزقني ، وهو ، ما يزال جامداً ، ما يزال
يتنفس بما يشبه الانين ، ما تزال نظراته تنفث حقداً
كالطاعون ، كنظرة المحتضر الاخيرة التي يرمي بها قاتله
(كنت أسعل والمرض يأكلني بنيرانه : سوسن .. إذا سقطت
صريع المرض ، ماذا تفعلين ؟ ..

بصمتك الذي أعرف عمق قرارته ، بعينيك الصريحتين
العاشقتين واجهتني . بدون أية كلمة .. بعدها بدقائق همست
بصعوبة : ماذا تتوقع مني أن أفعل ؟ ...

بقسوة أجبتك : انتحري .. اقتلي نفسك .. لم تقولي شيئاً ..
وكان في عينيك تصميم أعرف معناه .. كنت أعرف ان ما أقوله
ساخراً متحدياً يمثل في وجودك واقعاً لا شك فيه .. وانك كبعض

نساء الشرق الأقصى ، قد تحرقين نفسك حية مع جثة زوجك) ...
عادت تفح : لا تخش شيئاً .. قلت لك انه مشلول !. اخرجت
ثديها وبدأت ترضع طفلها وتهدهده ! ... أنا في المسلخ ،
وحيد وبائس والضباب ينبع من أسفل الموائد الحجرية كبخار
سام يعمي الاعين ، وأنا أدور من منضدة إلى أخرى ، وأنا
أهول بين الجثث ، أمد يدي إليها ، أدير وجوها نحوي
وأنا أصرخ : اكرم . فلا أجد إلا وجهي ! هذه جثة أخرى .
هذا أنا مشوه ، جثة ثالثة ، هذا أنا والجلدري يكسو بشرتي ،
جثة رابعة ، هذا وجهي ولي جسد سمكة منهوشة عفنة ..
وأظل أعدو وأعدو . الضباب السام يخنقني ، أريد أن أهرب .
(همس اكرم وزوجة جارنا تتعري في ركن غرفتنا المشتركة ،
وأنا مذهول ، لا أزيح نظراتي عن شريط الاذان الذي
حملني والذي إياه : النبع هنا مسمم من أساسه ،
معدني الدمشقية ترفضه ، لكنه مدهش كمخدر) ...
يقظة مريعة تخمرني أنا وحيد في ساحة معركة انتهت منذ
دقائق ، ولم يبق حولي إلا القتل ورائحة الدم والهشيم ..
(لن افكر بك يا سوسن ، أغار عليك من أن أدنلك) ...
أريد أن أهرب من لا مكان وإلى لا مكان ، أركض ممزقاً على
الجسر الممدود فوق نهر الضباب الغارق في فضاء الضباب ...
أركض على الدرج العتيق ، أركض في احياء ملتوية ، أركض .
أتعثر . الضباب يخمر كل شيء .. يخمر أسوار دمشق ، يخمر
صدى انتحاب سوسن ، يخمر أكرم الضائع في مسلخ ما ...
إذا أمطرت ، سوف أبكي .



أَسْمَاءُ الْفَرْجَانِيَّةِ

أمسية أخرى باردة ..
ربما انقضت ساعات ، وربما دقائق ، وأنا أحوم هكذا
بسيارتي .
شوارع . وجوه . أضواء . نباح . أبواق سيارات ،
والرياح ، ووجهه مسافر في غيمة ، ثم داره .
لا أدري لماذا أجد نفسي دوماً أحوم حولها ، رغم أنني
لا أشعر بأية رغبة في الدخول إليها ...
وداره كانت بركة نور على جلد المدينة الجفاف ، تعريني من
شرفقة منفاي ، وموجات صوته تروح وتجيء على كياني ...
وأهذي ونهذي معاً ..

- (- صغيرتي ، ما اسمك الحقيقي ؟ ..)
- كان فاطمة ، وصار في هذه المدينة « تيماء » .
- ومدينتك ؟ ..
- مدينة منهن ، عربية ، من الضالعات عن أي يقين ..
- أليس لك يقينك ؟
- لم أعد أدري ، الاحداث المتعاقبة مزقت اسرتي وأساطيري ،

ولم أجد أي بديل ...
- .. انك تحبين البديل ، الملجأ ، اليقين الذي أمثله لك ..
أخشى من أن أقول انك لا تحبيني أنا ... أنا على حقيقتي ...
- وما أنت ؟ هل لديك حقيقة أخرى ...
- أجل .. أنا مثلك .. انسان متعب وممزق ، طيب وشريبر ،
قوي وضعيف ، وفيّ وخائن كالبشر جميعاً .. انك تظلميني
بتأليهم لي .. تعذيني بطقوسك وعبادتك . أخشى علينا من
جوعك ليقين كبير ..
- لماذا ؟
- فما أنا سوى « ابن اخت الست ملاحه » ثرية المدينة
المشهورة ..
- ومديتك ؟
- بيارة برتقال دفن أبي وأمي تحت أنقاضها ، وتصادف
انني كنت غائباً ، أزور خالتي في هذه المدينة ، فنجوت ،
وبقيت عندها .
أمسية أخرى باردة ..
وأنا قد عدت وحيدة . لم أعد أذكر بالضبط كيف ولماذا
افترقنا . لم أعد أذكر فيما إذا كنت قد حزنت على فراقه
أم لا ..
كل ما أعرفه ، انه كان لا مفر من أن نفترق ، وان شيئاً
في داخلي قد انكسر بلا صوت ، وانني ابجر فيما وراء اصقاع
الحزن أو الأمل .. وان الاشياء في العالم الخارجي عادت تبدو
غريبة ومرعبة ، وانني زائغة ، زائغة ، قطرة زيتق على مقاهي
الارصفة ..

قطرة زئبق في الشوارع المنفية بالبرد والظلام والغربة .
 (كنت (أزوغ) تلك الليلة ، كعادتي لا أدري كيف
 التقاني . لاحظت ان سيارة تتبني . أبطأت . لما تجاوزني ميزته
 فتوقفت مدعنة لاشارة يده . لم يكن أسبوع قد انقضى منذ
 قدمته لي « خالته ملاحه » ، صديقتي الكبيرة .. هبط من
 سيارته وتقدم مني شبه نائر : إلى أين يا تيمما ؟
 - إلى لا مكان ؟ ماذا بك يا فادي ؟ ..
 - لماذا غادرت البيت ؟
 - لأنني خائفة .
 - مم تخافين ؟
 - أخاف الجدران ، والصمت ، والظلمة ، والبرد !
 - ماذا تقول تلميذاتك لو سمعتك ؟ وماذا يقول موظفو
 مؤسستك ؟
 - لا يهمني ذلك اطلاقاً ...
 - شاهدك الرفاق في المقهى تدورين بسيارتك ، علقوا
 ساخرين انك تبحنين عن رجل !
 - هذا كل ما يمكن أن يخطر لهم .. انهم يشخصون
 أمراض الغير من خلال أمراضهم ...
 - ان ذلك يسيء إلى سمعتك !
 - وما علاقة سمعتي بحقيقتي !
 - تيمما ..
 - على أية حال ، في المرة الثانية سأذهب إلى خالتيك ملاحه
 وأسهر وإياها حتى ينهكني التعب ، وأنام حينما أعود دون ان
 أبدل ثيابي .

— لا .. لا تذهبي أبداً إلى خالتي ملاحت .. لا تذهبي إلى
هناك وحدك ! تستطيعين زيارتها حين أكون في الدار . ارجوك
يا تيما ...

— ولكن ، فادي ، لماذا ؟

بصوت حازم أنهى فادي الحديث : لا تسألي . على أية حال
لن أتركك وحيدة بعد اليوم .

وهو يعود إلى سيارته همس بحرارة : هيا اذهبي إلى بيتك
وحدثيني هاتفياً ...)
أمسية أخرى باردة .

افتح باب بيتي . تفاجئني أضواء الشارع ممزقة ومرمية على
البلاط المعتم البارد .. والغرف تظل من أفواه الابواب المغفورة
مظلمة ساكنة .

أخاف البيوت الفارغة المعتمة — نسيت أن أترك النور مضاء
قبل خروجي — لأنني حينما أعود وأفتح بابي ، أحس ان هنالك
من ينتظرني في الداخل ..

دارنا هناك كانت تفور بالحياة والحركة ، حتى كانت تلك
الليلة ، وبدأ أهلها يتناقصون ويضيعون واحداً بعد الآخر ...

(لما سمعنا المدافع تلك الليلة الربيعية العتيقة ، رمى أبي
بنارجيلته جانباً ، والتفت إلى أمي : غريب . ثبتوا العبد قبل
موعده بيومين . سأذهب إلى الجامع للصلاة .

ثم خاطبني « فاطمة » وبدأ يبعث بحبات مسبحة السوداء
بعصية ، تجاهلته وظللت غارقة في كتابي أقرأ . لم أكن أحبه ،
ولم أكن أكرهه . كنت أحسده . كان يبدو قوياً ، هادئاً

دوماً ، مطمئناً وسعيداً . وكنت أتمنى أن أعرف سر هذا
كله ..

كنت أنبش في غرفة مكتبة اخوتي الثلاثة ، لعلي أجد ذلك
السِر في كتبهم ..
عاد أبي يناديني : فاطمة .. اتركي هذا الكتاب اللعين
يا فاطمة ..

— اسم مؤلفه « كامو » يا بابا ، لا « لعين » ...
تجاهل جوابي مستمراً : وتوضأي ، واقراي صفحات من
القرآن ، فالله الذي اكتشفناه في هذا الشرق ، لا بديل له في
فلسفات الغرب كلها .

وتمنيت أن يلحظ نظرة السخرية في عيني كي يثور ،
فأحدثه مباحية عن نجاح اخوتي الثلاثة في حياتهم السياسية
والعسكرية ، وعن أحزابهم المختلفة ، التي بثقافتها ووعيتها
سوف تمنح الحياة الكريمة للجميع ..

ظل متجاهلاً إياي واستمر : لست ضد الثقافة ، ولكنني
لا أريد لكم ثقافة تقطع جذوركم مع ماضيكم ، فتسودكم
بدلاً من أن تهضموها أنتم ، وتستخدموها خلال جذور
اصالتكم .

لم أجب فقد تلاحقت الضربات . قال انه سوف يخرج إلى
الجامع ليتحقق مما يدور . لم يسمعي وأنا أصرخ : لا تذهب .
اشك في ان شيئاً غير عادي قد حدث .

وبعد أن اخطنى مع مسبحته ، انقضت علي أمي بجثتها
المرهلة ، لتعيد علي للمرة الألف الحكاية نفسها التي تهوى
تكرارها : عشرة أعوام بعد زواجي من والدك ولم احمل ...

وفي كل يوم كان يذهب أبوك للجامع ويرفع نذراً لاحد
الاولياء . كل يوم ينذر في الجامع ، وكل يوم خطيبة جديدة
يرشحونها له ، حتى حدثت المعجزة وحملت ، ورزقنا الله
بأخيك « مندور » أولاً ثم ..

ثم ..

تلاحقت الطلقات ولم أعد أسمع شيئاً . ولم يعد هنالك أي
شك أنها ليست مدافع العيد ، وأنهم ربما اغتالوا العيد نهائياً .
ولم أعد أسمع شيئاً سوى ذلك الرعد الارعن ، ينتشر على صفحة
السماء بحيرات من وهج ..

لا أدري لماذا صرخت ، وأنا أحس للمرة الأولى في حياتي
ان اخدوداً من الصوان الناري يفتح في أحشائي : باباً ..
لا أذكر كم من الوقت انقضى ريثاً انفتح الباب ، ورموا
بجثة أبي ، ويده ما تزال تقبض على حبات المسبحة السوداء ..
واقتربت من خيط الدماء الذي كان يسيل من فمه . أحسست
بغبرة لا حد لها من تلك الابتسامة العجيبة على شفثيه . كانت
تحمل كل ما أبحث عنه داخل الكتب ، ولا أعرف له تحديداً :
شيء كان يسميه أبي « الامان » ..

ورأيت لحي شيوخ الحلي تتطاير حولي مع الكلمات :
« مندور » هو الذي قتله .. وعلى باب المزار .. حصدهم
حصداً بما فيهم أبوه .. يا له من زمن ملعون ... وهذا الخيل
الملعون ...

ولكنني لم أفهم ، ولا أدري لماذا أخفيت مسبحته السوداء
في صدري ..

وظللت عاجزة عن الفهم ، حتى حينما سمعت صوت أخي

يصرخ في المدياع مبشراً بزمن جديد مبارك .
وظللت عاجزة عن الفهم حتى حينما تعاقبت الاعياد والايام .
وكان الباب المجنون يفتح في بيتنا المرة تلو الأخرى لنستقبل
اخوتي المتقفين المتصارعين جثة إثر أخرى بعد أن اقتتلوا طيلة
شهور ..

كنت عاجزة عن الفهم ، لأن كلاً منهم طالما حدثني عن
الاشياء نفسها التي حدثني عنها الآخر . كلهم يقول : الشعب ،
العقيدة ، العمل ..

لماذا إذن يقتلون ؟ لماذا يحدث ذلك في كل مكان ؟!
ولا أدري لماذا حملت معي (مسبحة) أبي السوداء يوم
غادرت مدينتي كما يفعل الآلاف العرب في مختلف مدنهم رغم
انني عجزت عن فهم لماذا كان عليه ان يموت على عتبة المزار
التي طالما تخطاها مصلياً لندور .
أمسية أخرى باردة ..

والوجوه ذكريات وجوه والاحاديث أصداء أحاديث .
الوجوه فقاعات .. فقاعات .. كبالونات ذلك البائع الغريب
الذي يربط تحت نافذتي منذ ذلك اليوم ..
(عدت ذلك الصباح فرحة . إذ وجدت المرأة على إعلان
انسحابي من منظمنا ..

وكان رئيسي في المنظمة ، وله وجه فأر أحرقته الشمس ،
يرميني بنظرات تهديد شرسة ، ولكنني استطعت أن أتابع :
لا أدري بالضبط لماذا اريد أن أتوقف عن هذا كله ..
صرخ بصوت حماسي ذكرني بلهجتي وأنا أحدث الطلاب
في الصف عن اختراع أول مظاد : والشعب ؟ والثأر ؟ ..

ما الذي بدل قناعاتك هكذا فجأة ؟ ودم أخيك الاوسط ؟ ..
وانفجرت أضحك . اضحك . من قال له انها قضية دم
أي من اخوتي الثلاثة ؟ لقد قتل بعضهم بعضاً . إن كانت
حكاية دم ، فعلي أن أوزع نفسي في ثلاث منظمات بل أربع ،
من أجل دم أبي ! ..

وصرخت في وجهي عانس ما زالت آثار الضرب على
وجهها رغم اطلاق سراحها : كان إيمانك مزيفاً !
- ربما . ربما كنت معكم لمجرد انه لم يتصادف اني كنت
في مكان آخر . ولم أقل : والآن صار لي مكان آخر ..
واغمضت عيني برهة كي لا يروا صورة « فادي » في
عيني ..

وخجلت ، واحتقرت جزءاً كبيراً من ذاتي ، لأن المبادئ
التي كنت أدعي لنفسني الايمان بها ، آمنت بها لأنني أنا بحاجة
إلى الايمان ، لا لذاتها . وها قد رضيت بأول بديل ..
بـ « فادي » .

ونسيت فرحتي الصغيرة أمام البيت ، وأنا أقرب بانع
البالونات يتحرك بسرعة على الرصيف المقابل لداري ، وعلى
رأس أنبوب صغير يضع قليلاً من معجون خاص ، فتطاير
البالونات في الجو .

بالونات شفافة لماعة ، مختلفة الحجم ، تتطاير بين الرؤوس
والاجساد المسرعة فتنفقن ، ويعلو بعضها فوق الرؤوس ولكنه
لا يلبث ان ينفقن أيضاً ..

مجموعة الر أخرى من البالونات ، تتطاير ، ثم تنطفئ .

ولا تخلف حتى أثر رماد .. فورة بعد أخرى ، جيل بالونات
بعد آخر .

لا أدري لماذا تسمرت أرقب بالونات الفقاعات ، وداخلها
كنت أرى وجوهاً ووجوهاً عايشتها وعرفتتها ، ووجوهاً لم
أعرفها ، تتناثر على الرصيف ، تملو ، تصرخ بشعاراتها ، ثم
نفخة أخرى من فم بائع بالونات ، وتطير كلها نحوي ، ثم
تنفخها كلها بصمت قبل أن تمس وجهي أو تترك بصماتها على
صفحة عيني .

ولم أعد فرحة لأنني تركت المنظمة ولا حزينة ، ولم أعد
فرحة لأنني سألقى فادي ...

غممني جوع مؤلم .

جوع إلى شيء كبير كبير ، يستطيع أن يملو في الجو دون
أن ينطفئ أو يسقط ، وإذا كان عليه أن ينطفئ ، فعلى الأقل
خارج مرمى بصري !)
أمسية أخرى باردة ..

لست جائعة ، ولا أعرف شيئاً اسمه وقت الطعام . وقت
الطعام عندي هو لحظة جوعي ، وقد ينتضي يومان قبل أن يحل .
ذلك المنبه الاجتماعي لا أدري لماذا تعطل في داخلي .
لكنني أترك طعاماً يطهى على النار دائماً ، لا لأكله ،
ولكن لاشم رائحته . أحب أن تفوح في داري رائحة الطعام
دائماً ، وأعرف ان ذلك يفقد الدار شاعريتها ، ولكنه يميزها
عن مكثبي . قرب رف الكتب الكبير اغرس شريط (السخانة)
وأترك عليها وعاء طعام .

أبجرة الاكل تنتشر على الجدران . تغلف الكتب . تتسرب إلى

ثيابي الانيقة المعلقة في الخرائن المفتوحة .
الآن ، وزائحة الدار هكذا ، أستطيع أن أغمض عيني في
فراشي وأتخيل ان أسرة كبيرة - تخصني - تتحرك الآن خارج
غرفتي وتتسامر حول المائدة .
عن المقروض أن أكون جائعة . يوماً بعد يوم أفقد القدرة
على الانسجام مع صفوف الناس في حركاتهم المتآلفة .
يوماً بعد يوم ، أشعر بأن الاشياء التي أدرسها مضحكة
وسخيفة ، وأخشى من أن أصرخ في طالباتي : لا تصدقن شيئاً
مما أقول . كله كذب وخداع .
يوماً بعد يوم تتفكك حلقات السلسلة التي تشدني اليهم ،
أحسني انفرط عنهم كتلك الحبة السوداء الشاردة من مسبحة
أبي يوم قطعها فادي بلا مبرر وكاد يجن لمرآها ..
(في الملعب كان صراخهم يغطي وجه السماء ، وفي البداية
أحبيته .
أحسست الهتاف الجماعي غناء قبيلة طيبة وقوية تنادي إلهها
كي يضيء برهة على أكتاف الجبل لتستعيد إيمانها به
وطمأننتها ..
رؤوس رؤوس مرصوفة متلاصقة .. وفي قاع البئر المكسوة
بالرؤوس البشرية افراد فريقي كرة القدم ، يركضون ويتعثرون ،
ويطاردون والصراخ يعلو ويهبط ..
كنت دوماً هكذا منفرطة عن المجموعة ، ولكنني لم أكن
أكرهها بعد ، بل أرقب طقوس حبها وحماسها وكرهها بخنان
صادق ..
ثم لا أدري لماذا وجدني أرقب ملامح « الست ملاحت »

الخالسة إلى جانبي ، والتي كانت ترقب بهدوء وصمت كل ما يدور وأتساءل : لماذا تحب أن أرافقها دوماً هكذا ؟.. ماذا يشدها إلي ؟..

ربما كنت أنبش ملامحها بحثاً عن شبه دفين بينها وبين فادي . ثم وجدني أنبش زجاج نظارتها السوداء بحثاً عن ذلك البريق الشيطاني الغامض الذي يشع من عينيها أحياناً محرقةً عجيبةً .. أحياناً ، تنظر إلي بطريقة تسكب في كياني سائلاً نارياً مخيفاً مخدراً يستحيل فجأة - وقد قست ملامحها - كاوباً وآكلاً كماء الفضة ..

التفتت إلي وواجهتني بذلك الوجه النمري العجيب .. أحسست بحرج لا أعرف له سبباً ..

وبحثت في حقيبي عن سلسلة مفاتيحي أتشغل بها ، فاصطدمت يدي بالمسبحة التي كانت كل ما تبقى من أبي .. أخرجتها وبدأت أعدو على حباتها ، أسقط ، أمسك بها ، أنزلق فوقها ، أمسك بها .. لن أسقط .. قالت : وأنت أيضاً ؟.. وأنت أيضاً من جامعات المسابح !

وظلت تتأمل المسبحة وقد اشتعل وجهها النمري بالدم .. سألتها : ماذا ، ماذا تعنين ؟.. ابتسمت بغموض ، وشدت على يدي بطريقة ظننت معها ان يد شاب تسللت إلى ذراعي ، وتلفتت بحثاً عنه ، ولكن اليد كانت تخرج من دانتيل ثوبها هي ..

أردت أن أوضح لها ان مسبحتي ليست ثمينة ، ولا أحملها تمشياً مع موضة سيدات المجتمع الأخيرة : موضة حمل المسابح الثمينة ...

ولكن صراخ الجمهور عاد فجأة يغطي الملعب البئر ..
صراخ مسعور ، ثم جانب المنصة القريب يتحطم ، ويسقط
بمن فيه من المتضاربين ، والذين حولنا بعضهم يترأص للهروب ،
وبعضهم يبدأ بالانضمام إلى المعركة .. المعركة : اصابة ..
لا ليست إصابة .. اقتلوا الحكّم .. احموا الحكّم ..
فوضى .

من أجل اولئك بقيت بلا دار .
الدم على الأرض . صفيّر الشرطة . الرياضة . الحضارة .
الدم . الدم . دوار . دم . دوار .. القاع .. انا وحيدة في
القاع ..

وحيدة في القاع ...

القاع ملعب يفور الضباب من شقوق أركانه .. رؤوس
متلاصقة طويلة الشعور وأيد تلوح ، طويلة الاظافر المقوفة ،
ثم يصرخون جميعاً مهلين . أنا في قاع البئر أتحرك على سطح
الملعب .

يهتفون صارخين .. أسير خائفة مذهولة ، يتعالى الصراخ
والتصفيق أقول لهم : « أنا مواطنة أبحث عن يقين ، مثلكم » .
يتعالى الضحك ، ثم يدخلون الاسود إلى الملعب لتأكلني ، ثم
أركض ، ثم أتعثر بحبات مسبحة (مفروطة) تنفقىء واحدة
تلو الأخرى كالفقاعات ... هتاف الجماهير ... تنشب الاسود
مخالبيها العطشى للدم ... انفجر ضاحكة ، أضحك ، أضحك ،
أضحك ! ..

ثم يد « ملاحت » تهزني ، وتأمل ضحكي بدهشة ..
خرجنا من الملعب ونحن نتحاشى الكراسي المتطايرة .

ملاحت تتمم : وحوش ! يسألونني لماذا أسافر إلى أوروبا وانفق نقودي هناك !.

وشعرت أيضاً بحقد عليها . أحسست أنها بطريقة ما مسؤولة عما يدور .

أمام الباب كان فادي ينتظر . يبدو انني خرجت وما زلت متمسكة بمسبحة أبي لأن فادي تأملها لبرهة مذهولاً وأخذ ينقل نظراته بسرعة بيني وبين خالته ، ثم عادت نظراته لتستقر على وجهي بقسوة وفيها اشمزاز وفجيمة العالم كله ... وازددت تمسكاً بحبات المسبحة ، وييد « ملاحت » والنفت اليه فلم أجده) ...

« فادي . فادي ضحك . غضب . صمت . تحدث . فادي ، فادي ، كفى ... لا جدوى من هذا كله » ... صوتي يرن في غرفتي الفارغة ، وأشعر برغبة في متابعة الحديث ... « فادي ، أحبتك . أنت وحدك تعرف كم أحبتك . فادي . أجل . وأنت أيضاً أحبتني . المأساة ان كلاً منا أحب الآخر على طريقته . أقسى جرائمنا كانت باسم جينا . فادي » .. صوتي ما يزال يرن ، وعبثاً أقاوم حاجتي في التحدث إلى نفسي بصوت عال .. إذن فقد عدت نهائياً إلى عادتي هذه ... أول مرة سمعت صوتي يهرب من تجاويف رأسي إلى الخارج عالياً ، أصبت بذعر امرأة ولدت ماعزاً !

ثم الفت صوتي ، وأنست به ، وصرت أشعر انه لمخلوق آخر يعيش معي ، واني لست وحيدة مادام هنالك حوار .. واني لست ميتة مادمت أتحدث وأسمع صوتاً ما .. « فادي . يبدو انني سأعود إلى افيوناتي كلها . الليلة أيضاً لن أجد القدرة على

النوم إلا إذا ابتلعت مجموعة من الحبوب المنومة .
افتح صنبور المياه الباردة على رأسي . ثم ثلاث حبوب
منومة . « لماذا لا تستمرين في ابتلاع ما تبقى » ؟ .. « ولماذا
أستمر ؟ ما الفرق ؟ مجرد أمسية أخرى باردة ! » .. « جربي »
« ليس هنالك ما يهزني بما فيه الكفاية لموت . لا أحب نفسي
بما فيه الكفاية لأنقذها بالموت ، ولا أكره شيئاً بما فيه الكفاية
لأهرب منه بالموت » ... « لقد تعذبت يا تيما طويلاً حتى
تقطعت أوتارك كلها وفقدت القدرة على استيعاب مأساتك » ..
« فعلاً يا فاطمة .. لقد تعذبت طويلاً ، طويلاً وحوارنا
الأخير لم يكن أكثر من قناع لالف حوار خلفه » ...

(صرخت مرهقة : فادي .. اني متعبة .. كفى !
وكانت تمطر بشدة خارج السيارة ، لكنه أصر على موقفه
موتناً : ألا تريدان أن نجد داراً نستقر فيها زوجين سعيدين ؟
- انها الدار الاربعون التي نزرورها .. لا أستطيع أن أفهم
معنى بحث هستييري كهذا ..
- ماذا تقصدين يا تيما ؟ ..

- أقصد أن المنطق في البحث عن دار يقتضي منا الجلوس
خلف مائدة لنكتب على ورقة مواصفات الدار التي نريد، وفقاً
لدخلنا ومزاجنا الشخصي ومكان عملنا .. أما أنت ، فكل
ما يعينك هو الدخول إلى أي بناء جديد لم يسكنه انسان من
قبل ... وعلى جدرانها النظيفة التي لم يجف طلاؤها بعد ، علق
لوحة : « للايجار » . شهران ونحن لا نفعل شيئاً سوى الدوران
في المدينة بحثاً عن لوحة « للايجار » ، ثم نصعد معاً لندير في

الغرف الفارغة .. انك تتلذذ بروية البيوت فارغة وجديدة لم تتسخ
بعد بأسرار ساكنيها ..

— ربما كان ذلك صحيحاً ...

— وأنا أخاف من البيوت الفارغة وأكرهها . لو لم يكن
بيتي الذي أفضته الآن مفروشاً لما استطعت أن أستوعب فكرة أن
أكون فيه ..

وهبطت من السيارة ، وقبل أن أنطلق هاربة للمرة الأخيرة ،
سمعتني انتحب : انك تحب فكرة الدار ، ولكنك عاجز عن
تحقيقها ، شيء اجهله ، يجعلك تمقت كل ما سبق لانسان أن
مسه .. نظنه دنسه ...

وأنا أمقت فكرة الدار لكنني أريد أن أحقق بيتاً .

أنت أيضاً طفل ضال مثلي .. طفل آخر ..)

أمسية أخرى باردة ..

والحبوب المنومة لن تجدي الليلة .. أوامكم يريخني أن
أتحديث بصوت مرتفع .. ربما كان هذا مصير الذين يقطعون
جسورهم مع الخارج ...

« تيماء ، هل أنت حزينة ؟ » .. « لست حزينة بالضبط

يا فاطمة ، لكن الأشياء كلها امتزجت واختلطت وتشوهت ..

أعصابي شبكة ممزقة ، فيها آثار حريق قديم لم تعد تذكر في

أي كهف شب ، ولا كيف ومتى » .. « أسألي رف كتبك » .

اليوت بصرخ من دفتي كتابه : أنا انسان الأرض البوار .

كامو يثن : أنا الغريب .

سارتر : انا الاله .

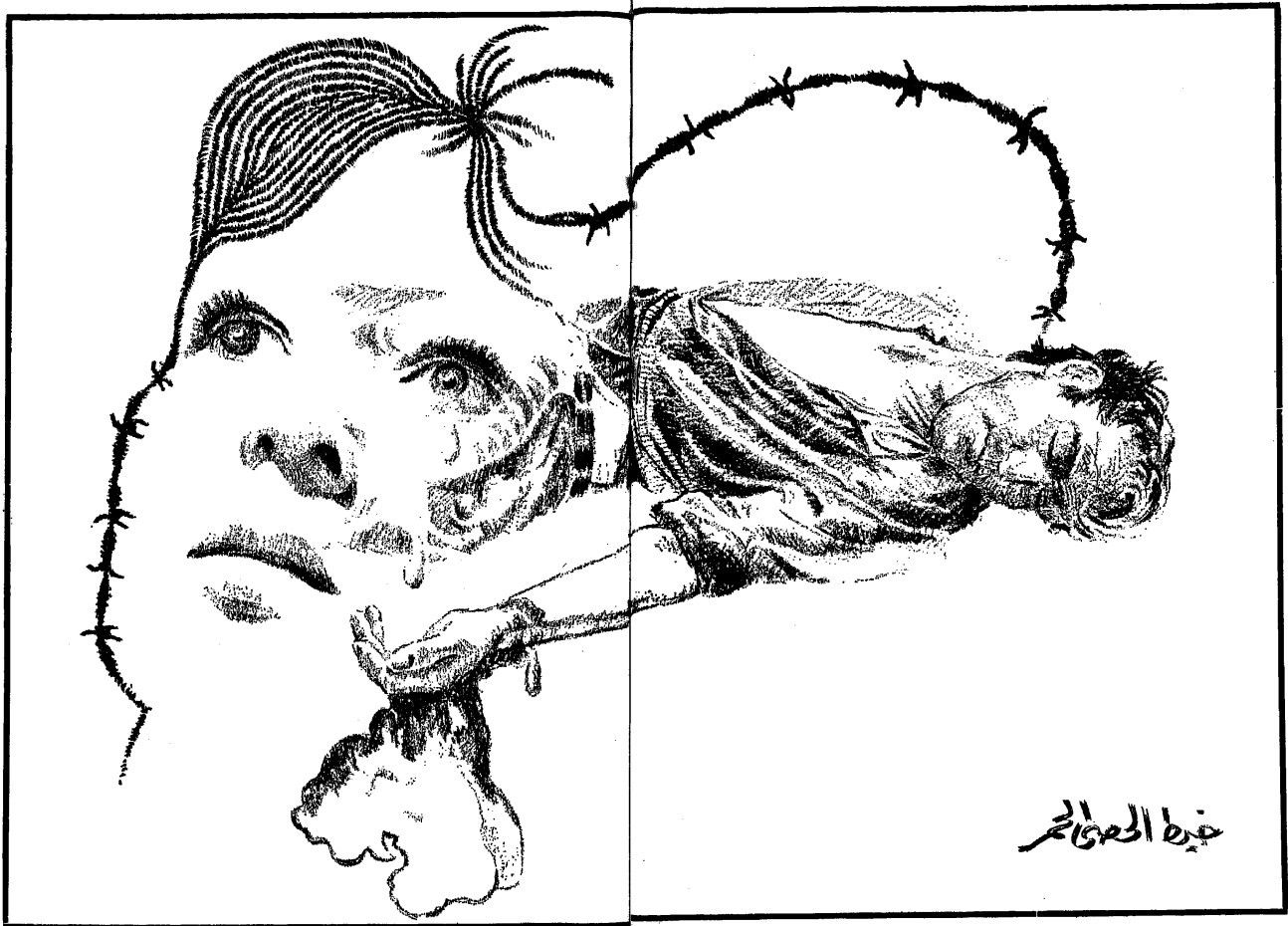
كافكا : انا المحكوم سلفاً بلا حريمة ، أنا الصرصار .

ثم يصرخون جميعاً معاً وتنضم إلى الجوقة آلاف الصرخات ،
تمترج ، تعول ، تهدر ، ثم موجة من الفقاعات ...
أليست لنا صفحاتنا ؟
رنين الهاتف .

من ؟
من يمكن أن يفكر بي ؟ منذ زمن طويل انزلت ، وبيتي
مجهول ، وهاتفي ميت منذ رحلت « ملاحت » وانطفاً فادي .
أغلق الهاتف ، وعبثاً أصدق بأن ما دار من حوار كان
حقيقة .. إذن عادت ملاحت منذ دقائق .. أنها تهتف من
المطار .. سوف تجيء إلي قبل أن تمضي إلى بيتها ..
لقد ناديتني « يا ابنتي » .. « يا ابنتي » الكلمة المجرمة ..
لأن فادي كان يناديني « يا ابنتي » ، أشعر اني أكاد استعيد
قدرتي على البكاء وأنا أسمعها ثانية .. حلقي يدمع في تشنج
يؤللي ..
لم أكن أدري انني صغيرة هكذا ووحيدة إلا وانا أسمعها
تقول « يا ابنتي » ..
سوف تجيء . لن أكون وحيدة الليلة .. لن أهرب إلى الشارع
قطرة زئبق على مقاهي الارصفة ..
أفتح النوافذ . أرش بقايا زجاجة عطر . أنبش اسطواناتي
المغطاة بالغبار . ارتب كل شيء في موضعه . أواه ، ماذا
اهديها مقابل « يا ابنتي » وهي الثرية ؟ .. مسبحة أبي ، ستكون
لها .. الاسطورة الاخيرة الغامضة ، المختزنة ، ربما
تفهمها ..

* * *

لن أذهب . لن لن لن .
لن ألحق بها كما طلبت . لن أذهب .
على المنضدة ، خلفت لي (مسبحتها) الثمينة بفقاعاتها التي
تسطع تحت النور الميت .
وأنا بصعوبة أستعيد ما حدث .. الدهشة التي تربض على
صدري أكبر من أي حزن أو تفكير .. أستعيد ما حدث
بصعوبة .. وأظل عاجزة عن استيعابه ..
لقد منحتني (مسبحتها) قبل أن أمنحها مسبحة أبي ..
ولكنها تريد شيئاً آخر ..
باشمئزاز من اكتشاف ان في وسادته عش عناكب ، ألام
أطراف ثوبي حول رقبي وصدري .. حبات المسبحة الثمينة
فقاعات تنطفئ ..
أرتمي في فراشي فقاعة تنطفئ .. وقبل أن ينطفئ كل
شيء في عيني ، أراها تدور بعصية في غرفتها الفاخرة ،
تدخن اللقافات ، وتتوقع أن يدفع بي بريق (مسبحتها) إلى
باب المخدع ...
لن أذهب .
غداً ، غداً سيكون يوماً مريراً إن كان هنالك غد ...



ربما انقضت ساعة كاملة ونحن أمام البطن المفتوح .
من يدي يتناول مقصاً آخر . المشرط . يغيب بهما في أحشاء
المريض . يعيدهما . ملقط . مقص . قطن . روائح الأدوية
نفاذة . كلماته صارمة . ربما ستقضي ساعة أخرى قبل أن
نتهي . البطن ما يزال مفتوحاً . تحت ملاءة بيضاء تختفي بقية
جثة مريض ولا يبدو ظاهراً سوى رأسه عند الناحية الأخرى
من المنصة .

لا أستطيع أن أستوعب ان هذا الرأس يخص هذا الجسد .
وان هاتين الشفتين سوف تصرخان الماء من أجل ذلك البطن
المفتوح في الجهة الأخرى من المنصة .

هكذا الأشياء تبقى أبداً مفككة في عيني . يحيل إليّ اني
لو كشفت الملاءة البيضاء عنه لما وجدت تحتها شيئاً . مجرد رأس
مقطوع مرمي على حافة المنصة ، وبطن هو آلة قائمة بذاتها ،
تعلمنا كيف نعالجها بآلاتنا ما دام لكل شيء تسعيرته .

على أية حال ، فالأمر لا يهمني إلى درجة تدفعني إلى التحقق
منه . لا شيء يعني كثيراً ..

مقص . ملقط . بسرعة . بسرعة . ممرضتان مساعدتان .
تأملاننا . نظراتهما تفيض إعجاباً بعبقرية الاخوين الطبيين ،
أنا وغازي ، والنجاح السريع الذي استطعنا تحقيقه « في خدمة
الانسانية المعذبة » ...

بدأ يخطط الجرح . لماذا ؟ لماذا تحب الاحشاء أن تتفتح
باللحم والجلد ؟؟ لماذا يسارع الناس إلى ارتداء الاقنعة بحجة
حفل « كرنفال ساهر » ؟ لماذا صارت حفلات « الكرنفال »
الدورية التي أقيمها حديث مجتمع هذه المدينة وموضع إعجابه ؟
لماذا تتفتح لوحات صديقي الوحيد نادر بالجلدران والباب المغلق
أبداً ؟ الواقع انني أحب طرح الاسئلة على سبيل التسلية ،
فلا شيء يهمني إلى درجة تدفعني إلى استقصاء الجواب .

تلك اللامبالاة ، لا أبالي كثيراً بالتخلص منها وإن كانت
تحرمني أحياناً من أشياء ربما كانت ممتعة ، كالمشاركة في البكاء
في المآتم ، والتحمس للقضايا السياسية في المقاهي ، وجمع
المعلومات عن آخر حادثة طلاق في المجتمع ... عن طلاق سعيد
وسميحة مثلاً ... أو اكتشاف سر مرسوم « نادر » في تلك الليلة
مثلاً !

(في تلك الليلة منذ أكثر من شهر ...

كما في كل ليلة ، جلسنا في مقهى التروبيكانا ..

كما في كل ليلة ، قال لي : « احبك » فضحكت لأنني لم

أجد جواباً أكثر سخفاً أقوله !

كما في كل ليلة ، انطوى على ذاته وقد جرحه استخفائي ،

وبدأ يجول بعينه في المقهى بحثاً عن أي صديق يفرق معه في

حديث سياسي عن بلده ، الذي غادره وزيراً متمرداً ، مصمماً

على العودة اليه وزيراً منتصراً .
ولكنه ، عاماً بعد عام ، أدرك ان مدينته التي غادرها لم
تعد هناك . والرفاق بيع منهم من بيع ، وتشتت من تشتت ،
وتبدل من تبدل ..

لقد استطعت إدراك ذلك كله من أحاديثه مع رفاقه ، ولكنني
لم أشعر أبداً بأية رغبة في سؤاله عن التفاصيل ، أو حتى عن
اسم مدينته – كنت أعرف انها لا بدّ من أن تكون ، واحدة
منهن ، عربية !

عاد يكرر : أحبك ...

ولكنه كان جالساً أمامي على مقعد مستقل ، وكان علي
المنضدة فنجانا قهوة لا فنجان واحد ، فعدت أسأله : ما معنى
انك تحبني ؟

قال : معناه اني أرغب في أن أكون وإياك شيئاً واحداً !
عدت أتأمل فنجاني القهوة المستقلين ، بينما عاد يتم حديثه ،
قال :

كلانا لاجيء . الحب وحده هو البديل ، هو وحده
يستطيع أن يسبغ على بيوتنا الميتة صفة الوطن . هل تفهمين ؟
الحب وحده خيام سعادة بليلتنا الممزق .

قلت : لا ... كيف يمكن أن أكون وإياك شيئاً واحداً ؟
قال : بأن امنحك أعماقي – أسرار بيتي وأسرار عمري .
بأن أعري أعماقي لك كماض ، وأعري وجهي لعينيك كحاضر
وكمستقبل ، فأبكي أمامك بلا خجل أو اشم ، أو أغني
كطفل ... وبأن تحدثنني عن حياتك الحقيقية الداخلية .

قلت : انك تعرف كل شيء عني !

قال : أعرف ما يعرفه الناس . ذلك لا يعني شيئاً . أعرف
انك فلسطينية المولد ، انك عشت حياة قاسية مع شقيقك في
أحد المستشفيات النائية حيث استطاع ان يجمع مبلغاً كبيراً من
المال بمعونتك ، بعد أن كد وحيداً أعواماً لينفق على دراستك .
وانكيا الآن ثريان وناجحان ، ومن نجوم مجتمع هذه المدينة .
هذا كل ما أعرفه ...

قلت : هذا كل ما أذكره أنا أيضاً !

قال : أريد أن أمنحك ذاتي دهليزاً بعد الآخر ... سأبدأ
بمرسمي ... انه مكان لم يطأه انسان من قبل - فيه سر لم أبح
به لمخلوق - انك منومة مغناطيسياً ، وربما يتقذك الحب .
ولما كانت أنفاسي قد ضاقت فجأة ، قبلت بالذهاب معه
إلى مرسمه الذي يسميه بكهفه ، وفرح لأنه ظني راغبة بذلك .
في الشارع كان الليل دالئاً وفي الاعلى ذلك القرص الابيض
البيد - القمر !

قال : ما أجمل القمر ... طالما عايشت صورته الحلوة في
نهر مدينتي ، وسمعت الناس ينشدون له .

وتماسكت كي لا أقول له : لا يهمني ان أتذكر أي شيء ..
وأعتقد ان القمر يشبه رأساً صلعاء مصابة بالبرص !

في ردة مرسمه ، وقف أمام باب آخر مغلق ، وقال :
الآن سأفتح لك باب كهفي !

وكنت أحمل بيدي فنجان قهوة أعده لي بنفسه فور وصولنا
فقد كانت القهوة الشيء الوحيد الذي يثير اهتمامي ...

وبحركة مسرحية ، فتح الباب وقال : ادخلي ..
ورأيت خلال الباب المشقوق في الضوء المتسلل الشاحب ،

غرفة عارية تماماً من أي أثاث . وعلى جدرانها عدد من اللوحات
المتساوية الحجم تماماً ، والمصفوفة بانتظام تام ، مما جعلني
أثناء وأشعر بالنعاس . وأردت أن أترك فنجان القهوة على
المنضدة لاسترخي فوق أول مقعد . ولعل يدي ارتجفت حينما
سمعت صوته يدوي بوحشية صارخاً : ادخلي ... اني أمنحك
كنوزي ، لنكون شيئاً واحداً !

وكانت القهوة الحارة تندلق على يدي وتلهبها ، وهو يكرر
لنكون شيئاً واحداً !

لا أدري لماذا وجدني أصرخ مثله : لا أحد يستطيع أن
يكون شيئاً واحداً مع آخر . القهوة اندلقت على يدي ، فأحرقت
يدي أنا ولم تحرق يدك ، وآلمتني أنا لا أنت . وكنوزك لك
ولا نهمي كثيراً لأنها لا تملك لي شيئاً ..

ورأيت مسامه تتعرق بأسلوب يذكر بالبكاء . فلم أقل شيئاً.
وسمعت في الحمام يفتح الماء بشدة ، ثم عاد والماء ما يزال يقطر
من وجهه . ولاحظت انه قد غسل أشياء كثيرة من ملامحه ،
إذ ان وجهه لم يعد يعبر عن أي انفعال ، ولا أدري لماذا
أحسست انه صار يشبهني كثيراً برغم عيني الخضراوين
الكبيرتين .

أغلق باب الغرفة . قال بتهديب عنط يشبه كثيراً هجني في
الحديث : هل ترغبين في الخروج إلى العشاء ؟ لا طعام لدي
هنا ..

ولما لم أكن جالسة ، شكرته ، وقلت له اني سأذهب لزيارة
سعيد وسميحة لأنني سمعت بأن طلاقهما قد تم البارحة .

وسألني باللامبالاة نفسها : هل سميحة هي التي كانت ترافلك
أحياناً إلى مقهى « التروبيكانا » ؟
قلت : أجل ، هي زوجة المليونير سعيد وكانت ذات يوم
بائعة في أحد المخازن الكبرى تطيع إشارات أيدي الزبائن حتى
تم زواجها من سعيد !

وحيثما خرجت من كهفه ، عدت أشم في الشارع رائحة
الوباء والادوية . في كل مكان أشم رائحة وباء غامض ، أنا
متأكدة من انه يجتاح المدينة وكل مكان ، وانه لا بد وأن
يستيقظ الناس ذات صباح وقد أدركوا هذه الحقيقة مثل !
ولم أذهب إلى دار أهل سميحة المتواضعة ، لأنه لم تكن
لدي أية رغبة في اذلالها أو ايلامها ، وكل ما كان يهمني من
أمرها هو أن تظل قادرة على مرافقتي إلى « التروبيكانا » حينما
أرغب في ذلك !)

يسحب أخي غازي الغطاء الأبيض على البطن التي تمت
« خياطتها » وتعقيمها ، وتلتصع عيناه ببريق مضيء وهو يقول :
تمت العملية بنجاح والحمد لله ..
يخلع قناعه . يخرج من الغرفة وهو يناديني : تعالي يا نادية
لقد تأخرنا ! ..

* * *

يقولون ان غازي يقود سيارته بسرعة . لا ألحظ ذلك . ربما
كان عدادها الذي يشير إلى المئة فما فوق أكثر ادراكاً مني
لهذه الحقائق . الآلات أكثر صدقاً ودقة . أخي آلة نادرة ،
ولو لم أره منذ خمسة أعوام يبصق دماً في ذلك المستشفى القاحل

في ذلك القطر البعيد . لما صدقت ان العطب يمكن أن يصيبه .
اذكر اني يومئذ كنت ما أزال قادرة على البكاء والألم والمحبة .
لم أكن كما أنا الآن . اذكر اني يومئذ ...
(عدت اليه أحمل أشياء كثيرة أود لو أعرف كيف أقولها .
كنت ما أزال يومئذ أتحدث عن المبادئ والمثل المتداولة في
السوق العربية . ممتنة لما فعله من أجلي ومن أجل بقايا أسرتي
التي مازالت في بقايا القدس : جدتي العجوز ، أبي الكسيح ،
أمي واخواتنا الصغار ... وأعينهم المسمرّة على الاسلاك
الشائكة ...

ولما شاهدت الشمس المحرقة ، المناخ القاسي الوحشي ،
العمل ، العمل ، العمل ليلاً نهاراً ، المرضى ، يتساقطون في
كل مكان ، غرباء لاجئين جاءوا بحثاً عن الرزق إلى بلاد لم
يألفوا قسوتها ، جيوبهم خاوية وصدورهم خاوية إلا من المرض
والذكرى ، لما شاهدت هذا كله لم يدهشني أن أرى أخي الطبيب
ييصق دماً من وقت إلى آخر في منديله بعد أن يتلفت حوله
ويتأكد من أن أحداً لا يراه .

وتظاهرت بأنني لم أره . ولكنني ليلتئذ بكيت للمرة الأخيرة
في حياتي ثم اختلطت الاشياء . ثم صرت مثله : انه آلة تعمل
بلا تفكير . ثم اكتشفت انه ما زال يفكر ، وانني لن أبصق
دماً مثله ، لأنني كفتت تماماً عن المبالاة بأي شيء ! حتى
رائحة الوباء التي أشمها أينما تحركت ، لم تعد تضايقني .
في الساحة الحلوة أمام دارنا الكبيرة يوقف أخي السيارة .
يسعل . أشيح بوجهي عنه كي أمنحه الفرصة ليذفن الدم في
منديله بسلام .

كلانا اعتاد هذا الفاصل من السعال الدامي . فعيش كأنه
غير موجود . كلانا يتجاوزه . وهو يطوي منديله قال : نادية
هل كل شيء جاهز ؟
- طبعاً ... بعد ساعة ستكون الساحة مزدحمة بالسيارات ...
والبيت بأقنعة الضيوف :

فأجاب : الضيوف والأقنعة لك ... كل ما يهمني أن يكون
صوت الموسيقى عالياً عالياً ، بحيث لا أسمع صوت مدافع
العيد !
- لماذا ؟

- لأنني لا أريد أن أسمع صوت مدافع العيد ..
ولا أدري لماذا تذكرت حديث « نادر » عن القمر والنهر
في مدينته ، وكدت أنفجر ضاحكة لو لم يسعل غازي من
جديد !

* * *

الدار ، حظيرة أصوات مختلفة تنبعث من تحت أقنعة
مختلفة ... شيء يشبه الضحك ، والحوار ، والموسيقى والترجيب
والهمس ..
أنا وغازي اخترنا أقنعة القراصنة . ننتهي من تنكرنا قبل
وصول ضيوفنا سادة المدينة ..

ليس من الصعب علي أن أميزهم رغم أقنعتهم . فجوهمهم
لم تكن قط حقيقية كما هي اليوم . ها هو النائب الكبير السيد
فوزي في قناع نعامة ، زوجته في ثياب جارية تراقص سفيراً

في قناع بهلوان . مشاهد ممتعة حقاً . السيد سعيد مع عشيقته
الجديدة في زي لاعب كرة قدم ترافقه غجريته ، وزوجته
المطلقة سميحة في زي الارملة الطروب وقد أخذت وجهها تماماً.
ألحظ ان « نادر » لم يحضر . كنت أتوقع ذلك فقد صار
يشبهني كثيراً بلامبالاته !

سعال غازي : هل أنت بخير ؟

– أجل ... ارفعي صوت الموسيقى ، لا أريد أن أسمع
صوت مدافع العيد !..

– مازال الوقت مبكراً ...

– من يدري ... ربما فاجأتنا .. سوف أنسحب بعد أن
يعلن العيد لأنام ، لأن علينا أن نلحق بالطائرة غداً باكراً ...
– انها المرة الأولى التي أزور فيها أهلنا والقدس منذ عشرة
أعوام يا غازي ...

– أما أنا ، فلولا هاتف جدتي ، تلك المعجزة العجيبة ، لولا
صوتها لما ذهبت قط إلى هناك ... فهم بحاجة إلى نقودنا ..
وأخشى لو ذهبت لما عدت ..

يفرق في نوبة سعال حادة . أتركه إلى إحدى الحلقات التي
كان أصحابها يتحدثون بحماسة كبيرة رغم الصخب .. زوجة
وزير كانت أعز صديقة لسميحة هي التي تدير الحديث ،
وترشق الوقود من وقت إلى آخر كي لا يخمد . تقول : أنا ،
أعز صديقاتها ، كانت تغار مني لو صافحته .. أليس كذلك
يا سعيد بك ؟

وتنجدها متصايبية ، شعرها الاصطناعي جميل جداً . فتصرخ :
وكانت إذا جاءت إلى الحلاق تطلب منه أن يترك الحاضرات
كلهن ويمشطها لأنها حرم سعيد بك !
ويتدخل مستوزر : كنا لا نجرؤ على زيارة البيك ...
وعرفت فيه المستوزر الذي كان معروفاً بتعلقه بها ...
وتسارع الاضواء وتشابك : « وكانت قنطرة ... وتهمل
أولادها ، ولا تعرف كيف تتصرف في المجتمع الراقي ...
ويتحرك شبح امرأة جاءت في ثياب الارملة الطروب منسلاً
من القاعة . الحق بها : سميحة ... إلى أين ؟
أدرك انها تبكي رغم قناعها . همس بمراة : كانوا جميعاً
يتملقونني . ليس فيهم من لم يأكل على مائدتي ... والآن !
تخرج . بالنسبة إلي الأمر عادي جداً ومتوقع . . لماذا
لا يدركون جميعاً ان الوباء قد سرى وانتهى الأمر ، وليس
هناك ما يدعو إلى الحزن أو الفرح ، أو حتى التمرد ؟
الموسيقى ؟ فلتصرخ !
وقع أقدامهم على الأرض ؟ فليصبح مسعوراً !
أحاديثهم ؟ فلتلعل ، ولتعم القوضى ، كي لا يسمع غازي
مدافع العيد ما دام لا يريد ذلك !
أنا وأخي آلة متضامنة وانصياعي لبعض رغباته آلي ، لا دخل
له بمواطني الميتة أو رغباتي المحنطة ..
فجأة ، تنطفئ الانوار كلها .. تصمت الموسيقى دفعة
واحدة ، ومعها تسكن أقدام الراقصين وتتوقف الأحاديث ..
أصوات احتجاج مختلفة شبه هامة .. ماذا حدث ؟
انقطع التيار الكهربائي .. خطى تسارع إلى النوافذ تزيح

الستائر . الحلي كله مطفأ . غازي يتجه نحو النافذة ليتأكد مما
قيل . نسمع طلقة المدفع الأولى . أراه ينتفض كأنما تلقاها
رصاصه في ظهره ... تتوالى طلقات المدافع وتتساقط أضواء
الشموع التي توزعها الخاديات في القاعة على وجوه ضيوفنا
الباشة ، وعبارات التهنية المتناثرة مع أصوات القبل : عيد
سعيد ...

ويجب غازي بنوبة سعال ، أما أنا فلا أفهم عن أي عيد
يتحدثون !

لولا ان جدتي أيام كانت قادرة على السفر ، كانت تلاحقني
من مدرسة داخلية إلى أخرى من عيد إلى آخر ، لما سمعت عن
العيد إلا من الصحف .

بل اني ظلت سنوات عديدة أظن العيد رجلاً متكبراً ،
لا يزور إلا الأطفال الذين لهم أم وأب ، والبيوت الفخمة .
أما الخيام ، والضائعون ، فالعيد يكرههم لسبب أجهله ، ولا يمر
ببأبهم .

ذلك كله لا يعني أي شيء لدي .. وحينما أذكره ، يغمرني
ذلك الشعور باللامبالاة ، الذي يرافق استعادتنا لفيلم عتيق
نسيناه !..

* * *

الأنوار مطفأة . الشموع تضيء متعبة متآوتة . تزيد رعشاتها
من اهتزاز الظلال في قسامات وجه غازي المشنجة المتعبة . لقد
ذهب الجميع ...

لا أشعر برغبة في النوم . سأخرج قليلاً بسيارتي لأنني أحب

أن أسمع صرير العجلات حيناً أضغط على الكابح . يضايقي
أن يستوقفني غازي لأنني لا أرغب الليلة في مزيد من النظر إلى
وجهه . هتف : نادية !

– ماذا بك ؟... لماذا لا تدعني وشأني وتحلق ذقنك الطويلة
التي حرمتها من الموسيقى بحجة التنكر بزي قرصان ؟
ضحكة مفتعبة . سعال . يهمهم كما يفعل الناس الذين يظنون
أن لديهم شيئاً هاماً يتحدثون عنه ويستعدون لذلك .
لم يخطئ حدسي . يقول : هل أنت ذاهبة لرؤية نادر ؟
– نادر ؟ لم يخطر لي ذلك . ولكنها ليست فكرة سيئة !
– نادية ... تعرفين انني لم أتدخل أبداً في حياتك ...
ولكن ، ألا تشعرين اننا كالطحالب وحياتنا بلا معنى ولا جدوى ؟
– لا أشعر بشيء ...

– ألا تشعرين بأننا نشترى كل شيء بالتقود التي نقبضها
ثمناً لبيعنا المستمر لنفوسنا ؟ اننا بحاجة لارتباط حقيقي ...
– لا أشعر بشيء ...
– علاقتنا بما حولنا مفتعلة وقائمة على الظرف الحالي لا على
رابط انساني مشترك نلتف حوله أبداً ...
– لا أشعر بشيء ...

– وماذا بعد ؟ سوف أظل أبداً هكذا ... أبداً هكذا ...
اني متعب ، وسشم ، والقرف يقتلني !
– لماذا لا تحلق ذقنك ؟ قد تتحسن حالتك ، أو تتحرر
مثلاً إذا كان الأمر كذلك ، لماذا لا تتحرر ؟
يدهشني أن أراه ينهض نحو الحمام ، أتبعه وشمعة أخرى في
يدي . يدلك ذقنه وهو يتمم :

— لم يعد لهذه الحياة المشردة معنى ... تحولنا إلى آلات
تسول جنسية ومجتمعا . في مثل هذه الليلة ، في مثل هذا العيد ،
اواه لا أجرؤ على الذهاب إلى هناك ... القدس . سوف أرقبهم
جميعاً ولا أملك لهم شيئاً . لا أملك شيئاً لرحمهم المفتوح .
أتركه يدمدم . أخرج بسيارتي إلى الشوارع التي لما تفرغ
بعد . ما زالت بعض المخازن مضاعة . غداً يحتفلون . لقد
كبرتُ في أجواء علمتني إنه لم يبق لنا ما نحتفل به أو نخرن
من أجله !

لم يبق هناك ما يناقش أو يكافح . الوباء الغامض لا أعرف
اسمه ، أحسه في المدينة ينتقل بين الجميع ، ويدهشي أن أحداً
فيها لم يشاركني فرحتي يوم رأيت مفارز التلقيح الاجباري
تجوب الشوارع .
إلى أين أذهب الآن ؟

لا يهم ما الفرق ؟ لا أذكر اني سمعت من حديث غازي
الأخير سوى اسم نادر ، نادر ، لا بأس ، سأمر بكهفه المهجور
قليلاً !

* * *

ضربة واحدة على الباب . صوت حركة غير عادية في الداخل
الباب لا يفتح وخطى راکضة في الداخل . الأمر لا يهمني .
سأعود إلى سيارتي وأنا أهبط الدرجات الأولى بتكاسل ، أراه
يفتح الباب :

— نادر مرحباً !

— أهلاً ... تفضلي ... ما هذه المفاجأة ؟

على وجهه لا يبدو أي أثر للمفاجأة .. وكلماته عادية لانهفة
فيها ولا تخوف . وعدت أصعد الدرجات القليلة لأنني أشعر
برغبة في تناول قدح من القهوة ، وهو يتقن اعدادها ..

اذخل ... على أحد الكراسي قناع « الارملة الطروب » وقد
علق بالباب الذي يفضي إلى الحمام جورب أسود ، وتشويش
الردهة ، وكووس الويسكي شبه الفارغة ... وفهمت بسرعة !
المشهد عادي وسخيف ومكرر لا يثير أكثر من مللي !

نادر في المطبخ يعد القهوة . باب كهفه المقدس مفتوح .
ربما في الداخل شيء آخر مثير يطرد مللي . أتشاءب وأنا أرى
اللوحات إياها مرصوفة بالنظام نفسه . أضيء النور . ربما كان
فيها ما يدفع الناس !

أرى في الغرفة ذات الجدران الأربع ٢٤ لوحة . ست
لوحات لكل جدار . كلها نسخة واحدة لوجه انسان هو نادر .
كلها متقن ورائع انه يرسم نفسه . لا يقدر إلا على رسم نفسه .
فكرة حسنة ، غداً أدفع عن نفسي الملل بها !

رائحة القهوة . نادر أمام الباب . يتحدث بهدوء تام كأن
الأمر لا يعنيه : تفضلي قبل أن تبرد القهوة !
أعود إلى الردهة . أفكر بسميحة التي لا بد انها ستصاب
بالبرد في الحمام .

— نادر لماذا لا تسكب لها فنجاناً آخر وتناديها ؟

— آه .. فعلاً ... لقد نسيت أنها في الداخل !

نضحك معاً . ينهض نحو باب الحمام ويفتحه قائلاً : تفضلي

يا سميحة وشاركيينا القهوة !

تخرج مشعنة الشعر ذليلة التعابير . فجأة تنمر ، تنشب
أظافرها في وجه نادر وترميني بنظرات نارية صارخة : أيها
الحقير .. وثقت بك وجئت وها أنت تستهتر بي !
لا أستطيع أن أفهم سبب ثورتها . أحسها هاربة من مسرح
ما وقد تلبسها دورها فهي تمارسه في كل مكان بمناسبة وبلا
مناسبة . نادر أيضاً يبدو على وجهه انه لا يستطيع أن يفهم ،
لكنه يحدثها بلغتها مهماً : لكنها صديقتك ...
تصرخ في وجهينا كساحرة : كلا كما لاجئ حقير .. لاتفهان
ظروف أبناء المجتمع ... كلا كما لاجئ حقير ... حاقد ،
بلا ضمير !
ولما قلت لها ، ان لا تنسى ارتداء جوربها ، ظلت تردد :
كلا كما لاجئ ... بلا ضمير !

• • •

أمام الدار ، في الساحة الكبيرة التي عادت شبه فارغة ،
أترك سيارتي . أضغط زر الكهرباء ، تسطع في الدرج . إذن
أستطيع إعداد حقيتي في الليل ما دام غازي قد قرر أن نرحل
غداً إلى القدس ..
ماذا سأجد هناك ؟ لا أتوقع أن أجد أي جديد في أي مكان ،
لذا لا شيء يثيرني .
أدخل إلى غرفتي وللمرة الأولى لا يرافقني سعال غازي .
جلدتي يجب أن لا تلحظ انه يبصق دماً . هذه المرأة وحدها
تضرب في أعماقي وترأ مبهماً لما يتقطع بعد لكن أصداءه تنظفي
لحظة بعد لحظة في داخلي ...

سأذهب إلى غرفة غازي لأسخر قليلاً من ذقنه المحلوقة
وأطلب منه أن يوقظني صباحاً !
أدخل إلى غرفته ، وأضيء النور . الفراش لم يمس . اقترب
من الحمام . وفي النور الساقط إلى الداخل ، أرى غازي ممدداً
على الأرض يسبح في بركة من سائل أحمر . أضيء النور .
أتقدم منه . وجهه مصلوب نحو السقف ، نصف ذقنه محلوقة
والموسى قد مزق بها شرايين يده بوحشية وشدة ، والجسد كف
عن الترف .

وحتى البالوعة شربت من الدم ما تستطيع امتصاصه ..
لم يبق ما أستطيع أن أقوم به ...
وأنا أوقف الخدم ، كان حسد كبير يأكلني للمرة الأولى ...
شعرت انني أغار من أخي . لا ريب في انه كان قد أحب
شيئاً كبيراً ورائعاً بما فيه الكفاية لأن يقطع شرايينه لما فقدته ...
وهم يخرجون يبحثون من الدار عاودتني غيرة مريرة منه ،
فقد أدركت انه بطريقة ما استطاع أن ينجو من الوباء .

• • •

القدس .

وبصوت مسرحي اعتاده سائق التاكسي الذي ينقل السياح
من المطار إلى فنادقهم يقول : هذا الخط يفصل بين القدس
المحتلة والقدس العربية ..

وتذكرت بكاء جلدتي لأن دار عمي تقع خلف الخط ،
وتمنيت أن لا تكون في الدار كي أجد القدرة على ان أقول لهم

ان غازي انتحر !

أجدني أغمغم : وإذا تصادف ان دار انسان ما تقع خلف
الخط واشتاتت عجوز إلى رؤيته .

يقول وقد استحال فجأة إلى شخصية مأساوية تخرج من بين
دفتي كتاب أخفيته طويلاً في أظلم ركن في ذاكرتي : يعودون
به ورصاصة في صدره .

بالضبط لا أدري ما الذي يضرب على وتر منسي في أعماقي.
ربما كان مشهد ذلك الفيلم الغريب الذي يلوح بين الغسيل
المنشور ، ربما كانت الأرصفة التي طالما تعثرت بأحجارها ...
ربما كانت رائحة الملح والزيتون في الصخور !

لا أعتقد ان نبأ انتحار أخي قد بلغهم بعد ، ومع ذلك
أدخل الدار ، ولا أدري لماذا أحس اني ارتكبت جريمة
بطريقة ما ، ولا أتوقع من أحد أن يسارع إلى استقبالي ، لذا
لم يدهشني ان الوجوه كلها كانت حزينة وباكية ، وان واحداً
لم يفه بحرف واحد . كانوا يرفعون وجوههم إلي واحداً بعد
الآخر .

بصمت داعم ... أسير في الغرفة محاطة بهذا الموكب
المرعب ... لا أدري لماذا تقودني نظراتهم إلى الداخل . أحس
ان في الداخل مقصلة ، ويجب أن أدخل ، وأن أتركها تسقط
على عنقي . في الداخل ، كانت عجوز ممددة على الفراش
ورصاصة ، في صدرها . جدتي .

ولولا الابتسامة التي طالما رأيتها على شفثيها وهي تحمل إلي
الحلوى في اعياد غابرة لما سألت : لماذا ؟ كيف ؟ ... لمن

كانت تحمل الحلوى هذه المرة ؟
ربما كان صوت أبي : إلى دار عمك خلف الاسلاك
الشائكة ... كل عيد ، تغافلنا وتود الذهاب ... وتقول ان
الرجال ماتوا والجبل الحديد «مفسود» ولم يبق إلا العجايز !
من النافذة ، أستطيع أن أرى ذلك العلم الغريب بين الغسيل
المنشور . انهم يتابعون حياتهم العادية بسلام .. ونحن .. نحن
وهناك جدار الرصاص ... ربما كان خيط رفيع من الدماء على
التراب بين عتبة دارنا وذلك الجدار ...
واذكر اسطورة من أساطير جدتي . قال ان أطفال الغابة
لما ضلوا طريقهم ، استطاعوا العودة مسترشدين بخيط من الحصى
خلفته لهم جنية تحبهم ولا تنسى ، وتعرف كل شيء ...
المشاهد كلها تغم ، وخيط الدم هذا أراه الآن بوضوح ،
خيط من الحصى الأرجوانية الثمينة في عتمة الغابة ، ممدود نحو
تلك الأرض العتيقة .

تُرجمت هذه القصة إلى الفارسية

فهرست

٥	الاهداء
٦	فزع طيور آخر
٢٢	المواء
٤٠	بقعة ضوء على مسرح
٧٠	ليلي والذئب
١٠٨	يا دمشق
١٣٠	أمسية أخرى باردة
١٥٠	خيوط الحصى الحمر



قصص وروايات

عيناك قدرتي (قصص) - (الطبعة العاشرة)

لا بحر في بيروت (قصص) - (الطبعة التاسعة)

ليل الغرباء (قصص) - (الطبعة الثامنة)

رحيل المرافئء القديمة (قصص) - (الطبعة السابعة)

بيروت ٧٥ (رواية) - (الطبعة السادسة)

كوابيس بيروت (رواية) - (الطبعة السابعة)

ليلة المليار (رواية) - (الطبعة الثانية)

حب (الطبعة التاسعة)

أعلنت عليك الحب (الطبعة التاسعة)

غربة تحت الصفر (الطبعة الثانية)

الأعماق المحتلة (الطبعة الثانية)

أشهد عكس الريح (الطبعة الثانية)

القمر المربع (قصص) - (الطبعة الأولى)

عاشقة في محبرة (الطبعة الأولى)

شهوة الأجنحة (الطبعة الأولى)



الأعمال غير الكاملة

زمن الحب الآخر (قصص) - (الطبعة السادسة)

الجسد حقيبة سفر (الطبعة الرابعة)

السباحة في بحيرة الشيطان (الطبعة الخامسة)

ختم الذاكرة بالشمع الأحمر (الطبعة الخامسة)

اعتقال لحظة هاربة (الطبعة الخامسة)

مواطنة متلبسة بالقراءة (الطبعة الرابعة)

الرغيف ينبض كالقلب (الطبعة الثالثة)

ع.غ. تتفرس (الطبعة الرابعة)

صفارة إنذار داخل رأسي (الطبعة الثالثة)

كتابات غير ملتزمة (الطبعة الثالثة)

الحب من الوريد إلى الوريد (الطبعة الرابعة)

القبيلة تستجوب القتيلة (الطبعة الثانية)

البحر يحاكم سمكة (الطبعة الثانية)

تسكع داخل جرح (الطبعة الأولى)



● «تتفوق غادة السمان على نفسها وعلى الكثيرات : ذلك أنها لم تكتف بأن تكون كاتبة نسائية ، ولكنها استخدمت مآزق المرأة العربية الذي تستشعره كأثني وتعيشه على ذلك «الجسر» المرير - الجسر بين عالمين وعصرين ، ومنطق «جيل الجسر» الذي تستشعره غادة بوضوح صاعق - لتعبر عنه ككاتبة ممتازة».

غسان كنفاني

● «غادة السمان ثورة في الأدب النسائي ، وتتمتع بفصاحة عربية منقطعة النظير» .
يوسف إدريس

● «ليل الغرباء» عمل أدبي عزيز عن قضية قومية عزيزة هي فلسطين ، ولكنه في الحقيقة يمتد ليصبح عملاً أدبياً عن القضية العربية كلها ، يرتعش بالحجة الصافية الصادقة لها ، والوعي العميق بأبعادها الأصيلة . وهو إلى جانب هذا كله عمل أدبي جاد يستحق التقدير .

محمود أمين العالم

● «قصص «ليل الغرباء» طرقات على باب الأدب العالمي»
جلال العشري

● «في «ليل الغرباء» يشعر القارئ انه يسير على جمر ملتهب من أول سطر إلى آخر سطر . لغتها أدبية رفيعة ، وألفاظها مدببة جارحة ، وأسلوب غادة احتراق ومعاناة ولهاث» .

مصطفى محمود



To: www.al-mostafa.com